محمد أديب العامري

القدس العربية

الحقائق التاريخية تجاه المزاعم الصهيونية



دار الطباعة والنشر

في هذا الكتاب ...

" ... نلاحظ ان اسماء القدس كلها
عربية الاصول ، يبوسية او كنعانية ... ،
حتى ان الاسم "اورشليم" كنعاني والاسم "يروشلايم"
آرامي ، عربي .

" كما نلاحظ ان قدسية المدينة عربية الاصل
فقد دشّن اليبوسيون العرب هذه القدسية
قبل مرور ابراهيم بالقدس بألف سنة على
الاقل ، وهي مقدسة عربية قبل ان يحتلها
داود باكثر من الفي سنة .

" وكنا قد اشرنا من قبل الى ان اليبوسيين
هم اول من وضع حجراً في بناء القدس
في التاريخ ، وسنرى فيما بعد انها ظلت
مدينتهم ، وانهم لم يغادروها ولم
يُقْتَلعوا منها ، كما غادرها او اقتُلِع منها
الشعوب الاجنبية عنها ."



القدس العربية

« ان الاسرائليين يغربلون الحقائق بعناية ، ثم يضخمون الحقائق التي توافقهم ، ويتجاهلون الحقائق التي لا توافقهم . »

جيروم كامينادا

القدس العربية

الحقائق التاريخية تجاه المزاعم الصهيونية

تأليف

محمد أديب العامري

دار الطباعة والنشر

عمان

١٩٧١

الطبعة الثالثة



الاسرة الكنعانية العربية
في اريحا ـ فلسطين

(عن الدكتورة العالمة
الاثرية البريطانيــة
كاثلين كنيــون)

كانوا قد بلغوا هذا المستوى
الرفيع من الحضارة سنة
٢٠٠٠ ق . م ، في حين لم
تتكون الجماعات العبرية
إلا حوالي سنة ١٣٠٠ق.م.

المقـــــــدمة

يعالج هذا الكتاب ناحية واحـدة ، هي عروبة القدس قبل الأسلام . ففي صلة العرب بالمدينة المقدسة يرتكب بعض الكتاب والمحدثين العرب ، وناهيك بالاجانب ، خطأ تاريخيا جسيا حين يقولون ، او يوحون بالقول ، بان صلة العرب بالقدس انما ترجع الى تاريخ دخول المسلمين اليها سنة ١٧ هجرية (٦٣٨ ميلادية) ، اي منذ ١٣٧٣ سنة قمرية . ويختصرون احيانا فيقولون « ثلاثة عشر قرناً » ! ، ولكنهم ينسون اولا يفصحون بأن المسلمين حـين دخلوا القدس زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكونوا الا الموجة العربية الاخيرة التي ازالت عن بلاد عربية اصلا (فلسطين وسورية) حكم الرومان الاجنبي الاستعماري ، كما ازالت عن العراق حكم الدولة الفارسية. اما سكان البلاد الاصليون فكانوا عربا مسيحيين وغير مسيحيين من الموجات الآرامية والكنعانية والعمورية وغيرها من الشعوب والقبائل التي سبقت موجـــة الاسلام . واليبوسيون العرب الذين هم بطن من الكنعانيين هم الذين سكنوا في اراضي القدس ثم اقاموا الابنية وتكاثروا وبدأوا بناء المدينة العريقة حتى تكامل بناؤها على ايديهم وجعلوها حاضرةَ مُلْك لهم .

ومع ان اقامة ثلاثة عشر قرنا متوالية تكسب حقا دائما لا ريب فيه، فان للنسيان الذي اشرنا اليه ، او التناسي ، اهمية وخطراً ، لان اليهود انما كانوا في القدس وفلسطين فترات محدودة باعداد قليلة ، قبل الفتح الاسلامي وبعده . والكتاب الصهيونيون ، ومن يشايعهـــم من الكتاب الاجانب ، يعمدون بشكل غامض مضلِّل ، الى ارجاع صلة اليهود بالقدس حقبا طويلة

سالفة ، ويدّعون فيما يدعون انها منحت لهم بموجب « وعد الهي » ، وأنهم اقاموا فيها كشعب واسسو ممالك كأمة آمادا طويلة من الدهر ، قبل اليبوسيين او الكنعانيين وبعدهم ، وانهم اكتسبوا بذلك ما يسمى « الحق التاريخي » .

ان الوقائع التاريخية المستندة الى التوراة ــ توراتهم ــ والى الحفريات الاثرية والمصادرالوثيقة لا تؤيد الدعوى الصهيونية قط . ومن هذه الوقائع ان الشعوب والقبائل العربية لم ينقطع وجودها في البلاد منذ عُرفت البلاد ، لان القدس وفلسطين في الحقيقة كانتا منذ اقدم العصور جزءاً من بلاد العرب . ولم يكن اليهود جزءاً من شعوب العرب،ولا كان قدومهم الى القدس وفلسطين الا متأخرا ، وما استطاعوا في اوج قوتهم وحكمهم ان يقيموا موحَّدين في القدس اكثر من سبعين سنة ، زمن حكم داود وسليمان، وما كانوا ذوي علم او فن او صناعة ، وإن اهم ما جاؤا به من ديانة التوحيد ، في اخريات ايامهم، ودعوة بعض زعمائهم الى شيء من الفكر الاصلاحي ، الضائع في تضاعيف التوراة ، والكتب الاخرى ، انما اقتبسوا معظمه من العراق اثناء السبي ومن سورية وفلسطين وغيرهما ، نتيجة ما اتصل بجماعاتهم ، مما سنأتي على ذكره في حينه .

ومع ان الدعاية الصهيونية المبطلة تعتمد على ما يسمى « الوعدالالهي » لليهود بامتلاك البلاد ، وعلى دعوى « الحق التاريخي » التي يدعون بناء على حكمهم العابر المشوب ــ تعتمد على هذه الدعاوى اكثر مما تعتمد على اي دعم آخر ، وخاصة في العالم المسيحي الغربي ، وفي « اسرائيليات » دخيلة على التراث الاسلامي ، فاننا نجل القارىء الكريم عن ان يفهم من هذا ان بيان عروبة القدس بمثل هذا الكتاب او غيره سيحرر المدينة المقدسة ، او يثبت الحق فيها لاصحابها العرب ، كما نجل احدا عن الظن بان استيلاء الصهيونيين على القدس او فلسطين ، او اجزاء اخرى من بلاد العرب ، انما جاء مصدقا

لوعد الهي او حق تاريخي ، كلا ، بل ان تفرق كلمة العرب وقوة الصهيونيين وغدرهم وخداعهم ، ومظاهرة القوى الاستعمارية لهم ، هي التي مكنتهم من العدوان على فلسطين والبلاد العربية الاخرى . والقوة وحدها نازلة الى المعركة او جاهزة من اجلها ، هي التي ستخرجهم منها. هذا هو الدرس الذي علمتنا اياه وقائع التاريخ في جميع الازمنة والعصور .

عمان في ١٩٧١/٩/١٥ محمد أديب العامري

١

جزيرة العرب والهجرات العربية

(كيف ومتى حل العرب في مدينة القدس)

كنا نحب ان ندخـل في موضوع القـدس مباشرة . ولكن هذا يقتضي بطبيعته تفهماً للناس الذين سكنوا القدس اول مرة ، ولعلاقة القدس نفسها وفلسطين معها بالبلاد الاخرى التي تقع حولها ، مثـل مصر ولبنان وسورية والعراق . ومنشأ ذلك ان الناس في القدم كانوا يتنقلون تنقلا حراً واسعاً بين أجزاء هذه البلاد المتوحدة منذ نشوئها . ثم ان الواقع التاريخي قد ربط بين شعوبها وشعوب جزيرة العرب ربطاً جنسياً وقوميـاً اتضح مؤخراً نتيجة المكتشفات الاثرية .

ولكن هذا لا يمنع من القـول هنا بأن العرب ، تحت اسماء مختلفة ، هم سكان فلسطين الاساسيون منذ وُجد في البلاد سكان ، وانهم عُرفوا بسكناهم للبلاد باسماء « العمورين » و « الكنعانيين » منذ ما لا يقل عن خمسة آلاف سنة أو ستة آلاف ، وان « اليبوسيين » العرب انشأوا القدس لاول مرة في التاريخ ، منذ نحو ٤٠٠٠ سنة ق.م ، واعتبروها مقدسة منذ نحو ٣٠٠٠ سنة ق.م .

أما اليهود فقد غزوا القدس في نحو سنة ١٠٠٠ ق.م. واسسوا فيهـا مملكة داود وسليمان ، ولم يحكموا في القدس حكماً موحداً الا مدة سبعين سنة ، ثم تجزأت المملكة ثم انهارت اجزاؤها وتوزع اليهود في فلسطين والعراق ومصر وغيرها على شكل الجاليات التي نعرفها ، في حين ظل سواد الشعب والحكام في القدس وفلسطين عربياً كنعانياً .

وفي هذه الاثناء ظهر السيد المسيح واعتنق كثيرون من العـرب الدين المسيحي السمح ، حتى جـــاء الفتح الاسلامي المعروف الذي احترم العلاقة الطيبة التي كانت قائمة بين المسيحيين وغيرهم من العرب الوثنيين ، ثم المسلمين.

جزيرة العرب والهلال الخصيب

ولقد كان المعنى القديم للجزيرة العربية يشمل (مع شبه الجزيرة نفسه) ما بين النهرين (العراق) وسورية ولبنان وشرقي الاردن وفلسطين بحدودها الحديثة تقريباً ، كما كان يشمل شبه جزيرة سيناء . بل اكثر من ذلك ، اذ كان يشمل ما يقع شرقي النيل من الاراضي المصرية الحالية . اي ان النيل نفسه كان يعتبر الحد الفاصل بين جزيرة العرب من الشرق والاراضي التي تقـع غربي نهر النيل وليبيا من الغرب . هذا هو المعنى الذي تنص عليه المراجع التاريخية والذي ساد استعماله منذ الالف الاول قبل الميلاد * .

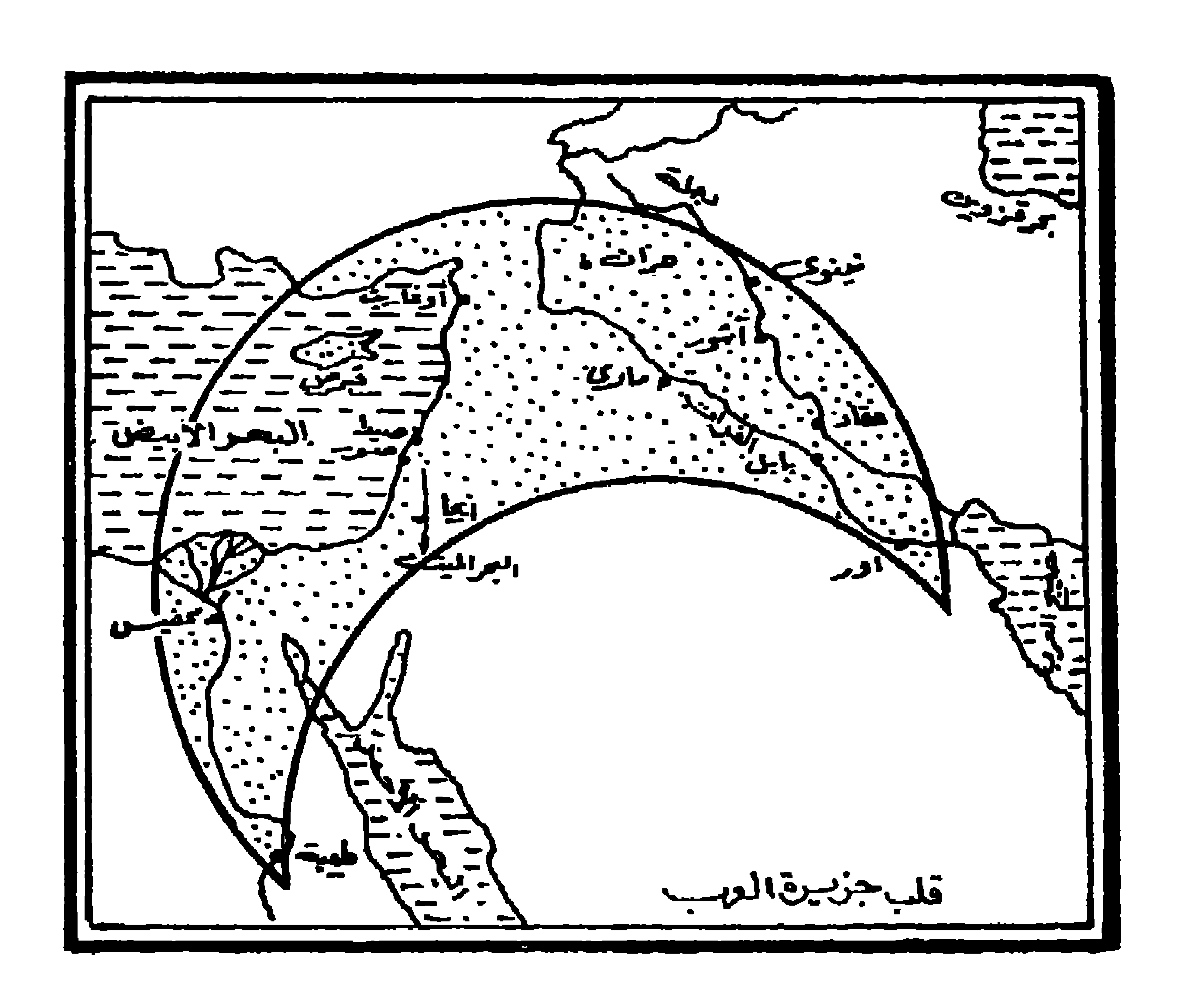
اما المعنى الحديث للجزيرة فأضيق من ذلك ، اذ يتألف من «قلب الجزيرة» والكويت والصحارى العربية الشمالية» فقط . وقد ابرزت هذا المعنى تقسيمات الحرب العالمية الاولى .

واما المعنى الاول لـ « الهـــلال الخصيب » فكان يشمل سائر الاراضي الواقعة شمال صحارى جزيرة العرب ، ابتداء من الخليج العربي شرقاً وانتهاء بوادي النيل غرباً . وعلى هذا كان الهلال الخصيب يشمل الاراضي الشماليـة الشرقية (الخصيبة) من وادي النيل . « والهلال الخصيب » مصطلح حديث اطلقه المؤرخ الاميركي برستد المتوفى سنة ١٩٣٥ .

وقد تغير هذا المعنى قليلا في الوقت الحاضر ، اذ اخذ الكتاب يطلقون اسم الهلال الخصيب على العراق وسورية ولبنان وفلسطين والاردن ، فقط .

* جرجي زيدان ، العرب قبل الاسلام ، مطبعة الهلال ، مصر ، ١٩٢٢ ، ص ٢٩ .

وكان الهلال الخصيب بالمعنى الاول مجالا لحركات القبائل العديدة التي كانت تهاجر من قلب جزيرة العرب لتسكن في ارجاء الهلال ، كما كانت القبائل العديدة القاطنة في الهلال نفسه تتنقل من بلاد الى اخرى ، دون أي حاجز من حدود معينة أو « جنسيات » أو هويات .



الهلال الخصيب

نشأ منذ أقدم العصور جزءاً لا يتجزأ من « جزيرة العرب »
كان قلب الجزيرة مهد الشعوب العربية ، وكان الهلال الخصيب مجال تطورها وحضارتها

كان قلب الجزيرة مهد الشعوب العربية ، وكان الهلال الخصيب مجـال تطورها وحضارتها . وكانت القدس بالطبع ، بحكم وقوعهـا في فلسطين ، مدينة من مدن الهلال الخصيب .

اما الاسم « فلسطين » فيعود كما سنرى الى « الفلسطينيين » الذين قدموا الى البلاد حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م. من جزر اليونان ، واستقروا في الساحل الكنعاني آنذاك الواقع بين يافا وغزة . وقد تلاشى الفلسطينيون الطارئون في السكان الاصليين من العموريين والكنعانيين ، خلال نحو ١٥٠ سنة ، واصبح اسم « فلسطين » منذئذ الى اليوم اسماً للبلاد التي لم تكن تخومها معلومة ولا محدودة كما هي معلومة ومحدودة في الوقت الحاضر . اما كيف ثبت هـذا الاسم ـ فلسطين ـ على الرغم من قصر المدة التي استقر فيهـا الفلسطينيون القدماء في ساحل يافا ـ غزة فأمره غريب وسببه للآن غير معروف .

« العرب » و « الساميون » وهجراتهم

ومن المصطلحات التي ترد كثيراً في الكتب الاجنبية ، والكتب التي تسايرها في العربية ، عند البحث عن تاريخ القدس القديم وفلسطين ، مصطلح « الساميين » . والساميون في هذا المصطلح يشملون الاشوريين والكلدانيين والبابليين والعموريين والكنعانيين (والفنيقيين واليبوسيين) والآراميين . وقد اطلق هذا الاسم في الاصل على لغات هذه الشعوب وثقافاتها ، وشمل اللغـة الحبشية والعبرية ، ثم اطلق خطأ من بعد على الشعوب نفسها احياناً كثيرة. وكان هذا قبل ان تتضح روابط هذه الشعوب التي خرجت من جزيرة العرب والتي ترجع بنسبها الى جنس (عرق) واحـد هو الجنس العربي الاول الذي نشأ في قلب الجزيرة . ومع اننا ما نزال وسنظل نحتفظ لهذه الشعوب باسمائها التي ذكرناها ، فإننا نعلم الان أنها جميعاً شعوب « عربيـة » . فالسامي اذن هو العربي . ويشمل تعريف « السامية » عند اصحاب هذا المصطلح الجماعات العبرانية ايضاً ، ولكن المكتشفات الحديثة ترجح للعبرانيين نسباً غير نسبهم

الى الجنس السامي الصافي ، او العربي الصريح . وسنزيد موضوع « اصل اليهود » ايضاحا فيا بعد* .

وقد نشأ الانسان العربي الاول في جزيرة العرب . ويظن ان منشأه كان الاقسام الجنوبية من الجزيرة . وقد ظهر هذا الانسان في صورة من سمي «الانسان العاقل»** منذ عشرة آلاف سنة قبل الميلاد . والانسان العاقل هو الانسان الذي خرج من وحشيته فاصبحت قامته معتدلة ورأسه كبيرا وجبينه مرتفعا واطرافه متناسبة وذكاؤه حادا ، واخذ يمضي في سبيل الرقي الانساني بمختلف مظاهره الجسمانية والعقلية والحضارية .

ولما تكاثر هذا الانسان في قلب الجزيرة ، ولم يجد ما يكفيه من الموارد، اخذ يبحث عن الاراضي الخصبة التي يجد فيها الطعام لنفسه والكلأ لمواشيه.

ومن هنا أخذ يهاجر الى مصر والى اجزاء الهلال الخصيب . وكان قد اتجه في هجرته برا الى الجنوب الغربي لجزيرة العرب في جهات عدن ثم نخر عُباب البحر الاحمر ومن هناك دخل الى مصر . ولم تكن الطريق البحرية سبيله الوحيد الى مصر ، وانما سلك اليها والى بلدان الهلال الخصيب الطرق البرية متجهاً الى الشمال الغربي قاصداً مصر عن طريق فلسطين وسيناء ، أو قاصداً فلسطين ولبنان للاستقرار فيها ، او الى الشمال قاصداً سورية ، او الى الشمال الشرقي قاصداً العراق .

ومن هذه الطرق هاجر الجِرْزِيون وغيرهم الى مصر ، والبابليون والاشوريون والكلدانيون الى العراق ، والعموريون الى سورية والاردن وفلسطين ، والكنعانيون الى سورية ولبنان وفلسطين، والآراميون الى سورية.

---

* رغبة في عدم التشويش على القارىء ، لم نثبت المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في اعداد هذا الكتاب الموجز ، الا في مواضع قليلة ذات اهمية خاصة .

** Homo Sapiens .

ويهمنا من هذه الهجرات بصورة خاصة هجرة العموريين والكنعانيين الى فلسطين .

اما اليبوسيون الذين حلوا في ديار القدس فهم من القبائل الكنعانية ، وهم الذين انشأوا المدينة لاول مرة في التاريخ حوالي سنة ٤٠٠٠ ق . م ، بعد ان اقاموا في مكانها وفيما حولها عدة قرون من الزمان. وهم الذين انشأوا قدسيتها منذ ٣٠٠٠ سنة ق . م . تقريبا . ومن القبائل الكنعانية ايضا الفنيقيون الذين عمروا سواحل لبنان واجزاء من سواحل سورية وفلسطين .

وكانت هذه الهجرات تقع مرة كل الف سنة تقريبا . وقد بدأت في نحو سنة ٤٥٠٠ ق . م .، وتلتها هجرات في نحو سنة ٣٥٠٠ ، وهجرات اخرى في نحو سنة ٢٥٠٠ و ١٥٠٠ ق . م . والأرجح ان تكون قد وقعت هجرات اخرى من الجزيرة الى الهلال قبل ذلك .

وكانت موجة الهجرة الواحدة تحتاج من بدايتها لنهايتها الى نحو مائة سنة او مائتين .

ويعتبر بعض المؤرخين الفتح الاسلامي هجرة عربية أخيرة وقعت بدايتها بعد الميلاد (سنة ٦٣٠) ، وانتشرت على نطاق اوسع هذه المرة ، في الهلال الخصيب ومصر والسودان وشمالي افريقيا ثم في اسبانيا وغيرها من بلاد العالم . ولكنها تمت هذه المرة تحت لواء الدعوة الاسلامية وبوازع اساسي منها .

٢

القدس الحديثة *

وقبل ان ندخل في موضوع القدس التاريخية ، وهو هدف كتابنا هذا، نمهد لذلك بكلمة عن القدس الحديثة .

ان للقدس موقعا جميلا وسحرا خاصا وجمالا خفيا، لا يحس به الاحساس الكافي الا من اقام بها مدة وتذوق هذا الجمال تدريجا . ولعل من عوامل سحرها هدوؤها وعمق صداها وجمال تلالها ونظافة جوها. وتنمو على هاتيك التلال اعشاب وزهور شبه برية متعددة الالوان تغطي تربتها وتؤلف مَعْلَماً من معالمها . وابنيتها غير شاهقة تخالط سطوحها قباب غير مرتفعة موروثة عن تاريخها الغابر المديد .

وقد شيدت هذه الابنية من حجارة محلية كلسية صلبة ذات لون رمادي ذهبي او زهري زاه . وتركيب الحجارة قاس لا تنفذ اليه الرطوبة ولا يخترقه الماء ، ولذا لا يتغير زَهْوه بمرور الزمن . وعدم ارتفاع طبقات ابنيتها يساعد على ابراز المناظر الرائعة للافق المتموج الفسيح الذي يؤلف ما يشبه اللوحات الجميلة للفنانين الماهرين . واهل المدينة قانعون بانفسم لا يدخل بعضهم في شؤون بعض الا بقدر يتيح للمواطن المقيم والزائر العابر حرية

* في مصطلح هذا الكتاب «القدس التاريخية» هي مدينة اليبوسيين الاثرية على مرتفع الضهور (اوفل) خارج السور ، والى جنوبه الشرقي ، و« القدس القديمة » ما يقع منها داخل السور ، و « القدس الحديثة » تشمل جميع ما يقع خارج السور .

وطمأنينة . ولا شك ان قدسيتها تضفي عليها غلالة من الوقار والسكينة .

والمدينة بكاملها شرقية عربية مقدسة عريقة لم تخرجها الاحياء العربية الحديثة عن طبيعتها ، بل اضافت اليها ظاهرة متجددة منسجمة .

وتقع القدس على خط العرض ٣٤ شمالا ، وعلى خط الطول ٣٥ شرقاً . وتبعد عن اريحا مسافة ٣٠ كيلو مترا وعن نهر الاردن ٤٠ كم ، وعن ساحل البحر المتوسط ٦٥ كم تقريباً .

وتقع المدينة كلها ، تاريخية وقديمة وحديثة ، على سلسلة جبال القدس ضمن هضبة ذات مرتفعات تعلو نحو ٨٠٠ متر عن سطح البحر . وتتراوح حرارة الجو فيها ما بين ١٠ درجات سنتجراد كحد ادنى و ٣٥ كحد أعلى. وجوها معتدل الرطوبة او هو اقرب الى الجفاف . وينزل فيها حوالي ٦٠٠ مليمتر من ماء المطر سنويا . واذا كان هذا موزعا توزيعاً حسنا على اشهر الشتاء جاء موسم الحبوب والخضروات والفواكه جيدا . ويستمر فصل الشتاء من تشرين الثاني (نوفمبر) الى اواخر آذار (مارس) .

وتحيط بالمدينة كلها جبال مشهورة اهمها جبل المشارف (المشهد او سكوپَس) من الشمال وجبل المكبر من الجنوب وجبل الطور (الزيتون) من الشرق وجبل صهيون من الغرب .

وتقع القدس القديمة ضمن سور يحيط بها من جميع جهاتها . ويبلغ طوله نحو ٤ كم وارتفاعه نحو ١٢ مترا . وللسور سبعة ابواب كبيرة مفتوحة يدخل الناس منها الى المدينة من نواحيها المختلفة . ومن اشهر هذه الابواب باب العمود من الشمال وباب المغاربة من الجنوب وباب سان ستيفان(الاسباط) من الشرق وباب الخليل من الغرب . وللسور باب ثامن هو الباب الذهبي من الجهه الشرقية ، لكنه مغلق ولا يستعمل .

ومعظم السور الحالي لمدينة القدس من بناء السلطان سليان القانوني العثماني. وقد دامت اعمال البناء في السور ٥ سنوات ابتداء من سنة ١٥٣٦ م ، وعني بترميمه كلما احتاج الى ذلك مع الزمن جميع الدول المسيحية والاسلامية .وقد بلغت مساحة الاراضي التي تحتلها القدس قديمة وحديثة سنة ١٩٤٨ ما يزيد قليلا على ٣١ كيلو مترا مربعاً ، أي ٣١ ألف دونم . وتبلغ مساحة القدس القديمة نحو الف دونم ، وبالضبط ٩٢٧ دونماً (الدونم الف متر مربع).

ولم يكن اليهود حتى سنة ١٩٥٨ يملكون من مساحة القدس الحديثة البالغة نحو ٣٠ الف دونم اكثر من ٥ آلاف دونم ، أي ١٧٪ من المساحة . وبمعنى آخر فان ٢٥ ألف دونم من القدس الحديثة أو ٨٣٪ من اراضيها ومبانيها كان (وما يزال) املاكا عربية ، وهذه الحقيقة طغت عليها الدعاية الصهيونية التي توحي بأن القدس الحديثة يهودية . وكان من اسباب ذلك ان مكنهم الانتداب البريطاني عند جلائه عن البلاد سنة ١٩٤٨ من الاستيلاء على نحو ٢٠ ألف دونم من اراضي العرب واملاكهم في القدس الحديثة .

الملكية الضئيلة لليهود في القدس

ولا يملك اليهود من مساحة القدس القديمة غير نحو ٤٠ دونماً أي ٤٪ من المساحة . وتقع هذه ضمن الحي اليهودي في الجهة الجنوبية وسط المدينة ، وفي بعض احيائها الاخرى . ولا يملك اليهود من اراضي الحي اليهودي نفسه و من مبانيه إلا جزءاً زهيداً لا يتجاوز ١٥٪ و ٨٥٪ منه اوقاف اسلامية ، على الرغم من الاسم الذي اطلق على الحي . وهذا ينطق بالسماحة التي كان العرب المسلمون والمسيحيون يعاملون بها اليهود .

وخلاصة ملكية اليهود :

(١) في القدس الحديثة ١٧٪ من مساحة ٣٠ الف دونم
(٢) في القدس القديمة ٤٪ من مساحة ٩٢٧ دونماً
(٣) في الحي اليهودي ١٥٪ من مساحة ٣٠ دونماً .

وكانت القدس في الغالب محصورة داخل اسوارها منذ القدم حتى نحو ١٨٥٠ م ، كما كانت الى ذلك الوقت عربية خالصة تقريبا ، الا من الحي الصغير لقدماء اليهود ، كما اشرنا . ثم اخذ سكان المدينة والطارئون عليها يبنون خارج الاسوار . وكان من الطارئين عدد من الاسر اليهودية . ولم يؤثر هذا في نسبة الملكية ، اذ ظلت معظم الاراضي والمباني ملكا للعرب الى يومنا هذا ، بالنسب التي اشرنا اليها ، الا ما قد طرأ عليها بعد عدوان ١٩٦٧ من الاغتصاب «والضم» ، مما يظل غير ذي قيمة قانونية. ومن الاحياء العربية الجديدة خارج السور حي الشيخ جراح وباب الساهرة والمصرارة ولفتا الى الشمال والشمال الغربي ، والبقعة والثوري الى الجنوب ، والطالبية ومأمن الله والقطمون الى الغرب ، ورأس العمود ووادي الجوز الى الشرق ، وغيرها .

واهم ما في القدس بالطبع اماكنها المقدسة ، وفي مقدمتها الحرم الشريف الذي يحتوي المسجد الاقصى ومسجد الصخرة . ويقع الحرم في الجهة الشرقية الجنوبية من المدينة القديمة . وفي المدينة مساجد اخرى كثيرة يبلغ عددها ٣٥ مسجدا ، كما ان فيها مقابر اثرية مهمة وزوايا ، وفيها ركن البراق الشريف وغيرها كثير. وفي مقدمة الاماكن المقدسة كنيسة القيامة المجيدة ، وتقع في وسط المدينة القديمة ، التي تشتمل ايضا على درب الآلام وكنيسة الجسمانية وكنائس اخرى عديدة واديرة ومقابر ، تعود للطوائف المسيحية المختلفة .

ولا يملك اليهود آثارا او اماكن دينية او مقدسة مهمة على الرغم من الضجة العالية والعويل الطويل . ولكن لهم عرفاً تقليدياً في البكاء خارج القسم الجنوبي من الحائط الغربي للحرم الشريف الذي هو ملك اسلامي. ويدعي اليهود ان هذا الحائط اثر من هيكل سليمان . والحقيقة التاريخية تغاير ذلك كل المغايرة فقد دُمِّر الهيكل كله اكثر من مرة تدميرا تاماً، ولم تكشف الحفريات طوال مائة سنة عن اثر لاي شيء يتعلق بالهيكل. ولهم بعض كُنُس وبيوت دينية تقع في الحي اليهودي من المدينة القديمة . وجميع كنس اليهود في

القدس حديثة العهد غير اثرية ، واكثرها يقتصر على غرف في منازل عربية مؤجرة لهم . ولهم كذلك بعض المقابر ، ومنها مايقع على أرض اسلامية مؤجرة لهم إجارة اسمية، مما يشير ايضاً الى المعاملة السمحة التي كانوا يلقونها عند العرب .

وكان عدد سكان القدس سنة ١٩٤٨ نحو ١٦٠ ألف نسمة ، نصفهم من العرب والنصف الآخر من اليهود . وجاء عددهم هذا وليد الهجرة الناتجة عن تطبيق سياسة وعد بلفور الجائرة ، والا ففي « النصف الثاني من القرن السابع عشر كان عددهم في القدس ١٥٠ شخصاً» ، وفي اوائل القرن الثاني عشر (سنة ١١٧٠م) لم يكن في المدينة أكثر من يهودي واحد* .

والقدس مدينة سياحية عالمية جذابة . وكان الوارد السياحي منها للمملكة الاردنية الهاشمية سنة ١٩٦٦ نحو ١٢ مليون دينار . وكان تطوير السياحة يومئذ ما يزال في بدايته . وامكانيات المدينة المقدسة من هذه الناحية كبيرة جداً . ولنشاط السياحة فيها تأثير مباشر على نشاطها في سائر الاقطار العربية المجاورة ، بما في ذلك الجمهورية العربية المتحدة ولبنان . ولأسباب ثقافية واقتصادية لا يستطيع الصهيونيون تطوير مدينة القدس ، حتى من الناحية السياحية التي يكمن فيها وفي الناحية الدعائية مطمع اساسي لهم ، على الرغم من اي ادعاء آخر « تاريخي » او غير تاريخي .

وليس بالبعيد ان يتطور الجانب السياحي للقدس في المستقبل الى ما يجلب ايرادا ماليا لا يقل عن مائة مليون دينار سنويا ، كما ليس بالقليل ان يقترن اسم « اسرائيل » باسم « القدس » ، اشهر مدن العالم واكثرها حرمة لدى اصحاب الديانات الكبرى . واهم من هذا وذاك في نظرنا ما يهدف اليه الصهيونيون من بقاء القدس « موحدة » تحت سيطرتهم متعمقة في قلب

---

* Fr. Eugene Hoade, Guide to the Holy Land, Franciscan Press, Jerusalem, 1960, P. 71.

المملكة الاردنية ومهيأة لأن تكون « بوابة » تفضي الى الاردن وما جاوره من الاقطار العربية ، فيتم بذلك لهـم ما يريدون من الحدود « المفتوحـة » فوق ما يسمونه الحدود « الآمنة » .

وفي المدينة بعـض الصناعات التى يغلب عليها الطابـع السياحي مثـل صناعات خشب الزيتون والشمع والقاشاني والتطريز والزجاج والادوات الفضية .

والتعليم فيها ناشط مزدهر ، اذ فيها نحو ٥٠ مدرسة عربية و ٣٠ مكتبة ، منها ما له قيمه تاريخية ، مثل المكتبة الخالدية ومكتبة الكلـية العربيـة والقديس المخلص والمسجد الاقصى والمتحف الفلسطيني والمكتبة الانجيليـة الاثرية .

ومن المعلوم ان الصهيونيين اعلنوا بعد عدوان حزيران ١٩٦٧ «ضـم» القدس القديمة الى اجزاء القدس المحتلة سنة ١٩٤٨ . وعلى الرغم من ان الجمعية العامة للامم المتحدة ومجلس الامن ، وعددا من الدول منفردة ، قد شجبت هذا الاجراء ، فان اسرائيل ظلت سادرة فيه دون اي اعتبار ، واخذت تُغَيّر من معالم المدينة تغييرا بدأ يخرجها عن طابعها المتفرِّد .

وقد حاول الصهيونيون المحتلون مؤخرا ان يخططوا لتوسيع رقعة القدس وزيادة سكانها وتخطيط الحي اليهودي فيها ، فتضمنت الخطة عمارات متراصة مرتفعة يشبه بعضها ناطحات السحاب ، واشتملت على نواد وبارات ليلية كثيرة وشقق صغيرة تحيل المدينة العربية الى ما يشبه محطة السكة السوداء داخل مظاهر الزيف والنشاز . وقد عرضت الخطة على ثلاثين من المهندسين والمعماريين والفنانين العالميين الذين جمعتهم اسرائيل المحتلة في اواخر سنة ١٩٧٠ ، فنفروا منها ورفضوها لمغايرتها طبيعة المدينة المقدسة . وقد قال البروفسور برونسقي وهو احد المهندسين الذين دعوا للنظر في الخطة الصهيونية « ان اعمال البناء التي تمت في القدس [بعد عدوان حزيران] انتحار جماعي نتيجة الفشل الذريع » .

واضاف المهندس (مع انه يهودي) وهو يوجه الكلام الى تيدي كوليك المسمى رئيساً لبلدية القدس : « اذا كنت تعتزم الحصول على مصادقة على المشروع الهيكلي للقدس فإن المشروع سيء جدا ، والمهندسون غير مستعدين للتوقيع على مشروع يهدد المدينة ... واني غير مستعد ان انظر بصمت الى ما يجري في المدينة مما لا يحق لكم ان تقوموا به ... ان المشروع [الذي قدمته لنا] مستند تاريخي وسلاح يمكن ان يستخدمه العرب . »

ويعني برونسقي بما «يجرى في المدينة» الابنية السكنية التي اقامتها سلطات الاحتلال الاسرائيلية شمالي القدس، والتي اسمتها «حي اشكول»، وغيرها مما تنافر مع طابع المدينة المقدسة التاريخية ، ومما لا يصلح امر المدينة معه الا بهدمه .

والواقع انه ، بغض النظر عن عدم قانونية المحاولة الصهيونية، فمن المؤكد أنه لا يستطيع تطوير المدينة الا اهلها الذين انبثقوا منها ، او الذين اطالوا الاقامة فيها جيلا بعد جيل ، او العرب الذين تذوقوا في بلادهم مثل هذا التراث . وسبب ذلك ان تطوير القدس القديمة بما ضربت في التاريخ من جذور عميقة يحتاج الى احساس مرهف بتاريخها وتراثها. وقد استطاع المهندسون العرب لهذا السبب ان يرمموا مساجدها وكنائسها ويصلحوا آثارها ويضيفوا اليها دون ان يخرجوها عن طبيعتها، بل حافظوا على طابعها وتراثها واتصالها.

ولقد ادرك روح هذا المعنى الكاتب جيروم كاميندادا فقال في التايمس البريطانية ٧١/٣/٣ : « اذا ارادت اسرائيل ان تحس نبض الحياة في القدس كاملا ، مرة واحدة والى الابد ،وان تتذوق طعم هذا النبض لاجيال قادمة فيجب عليها ان ترفع يدها [عن القدس] منذ الآن » . ويشير كاميندادا في بقية كلمته الى ضرورة انعاش القدس بأيدي ابناء البلاد انفسهم. ومن الواضح اننا لا نؤمن بقدرة الصهيونية على شيء من «التذوق..الى الابد او لاجيال قادمة» ، او حقها فيه ، وذلك على ضوء الملكية الحاضرة و«الحق التاريخي »الحديث والازلي القديم، الذي ستتكشف لنا حقيقته في هذا الكتاب .

٣

نشأة القدس التاريخية
وسكانها العرب القدماء

وكما تعتبر مدينة القدس أشهر مـــدن العالم في التاريخ الحديث ، فقد كانت اشهرها في التاريخ القديم ايضاً . واعتبرها بعضهم مركزاً للعالم كله .

وقد اكتشفت في اراضي القدس وما حولها مواقع اثرية تدل على حياة بشرية . وتعود موجودات هذه المواقع الى العصور الحجرية كلها ، قديمـــة ومتوسطة وحديثة ، أي منذ اكثر بكثير من عشرة آلاف سنة [1] .

وكانت القدس التاريخية ، كما كانت فلسطين كلها ، مجالا من مجالات الهجرات العربية القديمة من قلب الجزيرة الى الهلال الخصيب . ويرجع وجـود الجنس العربي فيها وفي البلاد ، في رأي بعض الباحثين الثقات ، الى عشرة آلاف سنة . وسمي ذلك العرق السامي / الحامي . والعرق السامي هو العربي .

ويقول اولبرايت الاثري اللغوي الاميركي صاحب هذا الرأي ، حرفياً : « ان الشكل السائد للتراكيب العظمية والجماجم البشرية لاصفى القبائــــل السامية / الحامية اليوم قد ظهر في العصر الحجري المتوسط في فلسطين ، منذ نحو عشرة آلاف سنة . ومع أننا لا ننكر وقـــوع تحركات عديدة لشعوب غير سامية عبر اراضي فلسطين ، بين ذلك التاريـخ والالف الثالث قبـــل الميلاد ، فإن الاستنباط الوحيد الذي يبدو لنا معقولا هو ان العنصر السامي بقي العنصر الاساسي في التركيب الجنسي لفلسطين منذ ذلك الوقت الى الآن [2] . »

---

1 Ency. Brit., 1963, jerusalem.

2 W.F.Albright, The Archaeology Of Palestine, Penguin Book, Baltimore, U. S. A. 1961, pp. 179 - 80.

انتهى قول اولبرايت .

ولا ننسى هنا أن اليهود لم يكونوا قد ظهروا الى عالم الوجود في الالف الثالث المشار اليه .

وكانت فلسطين تعد جزءاً من سورية . ولم يعد هناك شك في ان قلب الجزيرة والهلال كانا معاً مجالا واحداً متكاملا لتنقلات الجنس العربي . كان قلب الجزيرة هو المعين الذي يمد الهلال بالسكان ، الذين كانوا يلتمسون الماء والمرعى والاستقرار . وتحت تأثير هذه العوامل خرجت قبائل عديدة مهاجرة الى فلسطين . ومهما اختلف المؤرخون في اوقات هذه الهجرات فلا شك ان فترات الالف الخامس والرابع والثالث (٥٠٠٠ — ٣٠٠٠) ق . م . كانت ضمن هذه الاوقات .

في اوائل تلك الازمة المُعْرِقة في القدم وقبلها بدأ الناس يسكنون في موقع القدس الحالي . يدل على ذلك ما وُجد هناك من رؤوس السهام والمقاشط الصوانية ، وأواني الطبخ في كهف يقع في اتجاه الجنوب الغربي من المدينة القديمة .

وفي اثناء الالف الرابع هاجرت من قلب الجزيرة قبائل من العَمُوريين والكنعانيين (واليبوسيين) . وقد جاء الكنعانيون ، ومعهم اليبوسيون الذين تفرعوا عنهم ، من جهات الخليج العربي شرقي الجزيرة . ويقول العالم آب . طوماس المختص بدراسة القدس بجامعة ويلز الشمالية أنه وُجِدَت آثار لهذه القبائل التي هاجرت الى نواحي القدس تدل على ان موقع المدينة كان مسكوناً في ذلك التاريخ* ، أي منذ نحو ثلاثة آلاف سنة قبل قدوم العبرانيين الى القدس .

ومع أنه ذُكِر ان عائلات عمورية كثيرة سكنت القدس ، مما جعل المدينة عمورية ، فأن أمر المدينة استقر بعدئذ على انها مدينة يبوسية (كنعانية) . ويجب ان لا يهمنا ذلك اذا اعتبرنا ان بعض المؤرخين يرون ان الكنعانيين

---

* AP. Thomas, Archaeology And Old Testament Study, Oxford, Clarendon Press, 1967 P. 282 .

انبثقوا من العموريين ، انبثاق اليبوسيين من الكنعانيين .

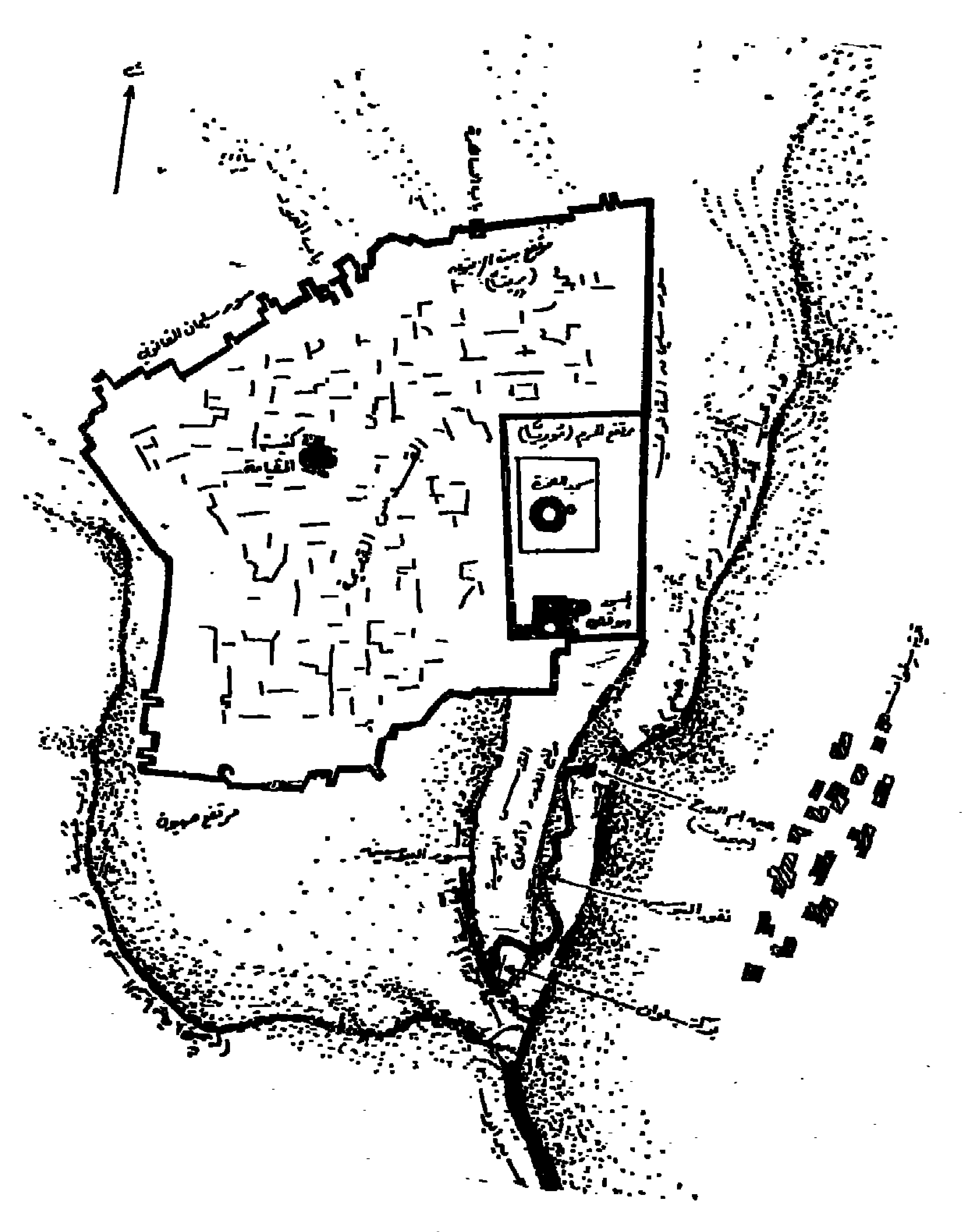
وتقع القدس القديمة كما نشاهدها اليوم على مرتفعات اربعة ، هي مرتفع بيت الزيتون (بزيتا) في الشمال الشرقي للمدينة ، بين باب الساهرة وباب حطة ، ومرتفع ساحة الحرم (موريا) في الشرق ، ومرتفع صهيون * في الجنوب الغربي ، ومرتفع الضهور (أوفل) ومعظمه خارج السور ، جنوب ساحة الحرم .

وقد اختير موقع القدس التاريخية على مرتفع الضهور ، لاسباب دفاعية ودينية . فمرتفع الضهور هذا تحيط به اودية عميقة من سائر جهاته ، الا الشمال . والموقع ينأى بعض الشيء عن الطريق الرئيسي (التجاري) الذي كان يصل فلسطين بمصر ، كما انه يقترب من مفترق الطرق القديمة بين نواحي الخليل ونابلس من جهة ، واريحا وشرقي الاردن من الجهة الاخرى . وقد بنى اليبوسيون فيما بنوا على هذا المرتفع هيكلا لـ « شالم » الههم الاعلى . وكان ملك القدس « كاهن الاله الأعلى » ايضا ، ولذلك اعتبروا المدينة مقدسة . ولا ريب ان قرب عين الماء جيحون كان سببا رئيسيا في اختيار الموقع .

ويبلغ معدل علو مرتفع الضهور ٦٨٠ مترا عن سطح البحر ، وهو بهذا الارتفاع ينخفض عن ساحة الحرم بنحو ٥٠ مترا ، ويبتعد عنها بنحو ١٧٠ مترا . ويبلغ طوله الممتد من الشمال الى الجنوب نحو ٤٠٠ متر وعرضه من الشرق الى الغرب نحو ١٣٥ مترا ، أي أن مساحته نحو ٥٥ دونما .

على هذا المرتفع انشأ اليبوسيون العرب المدينة لأول مرة في نحو سنة ٤٠٠٠ ق م تقريبا . وقدسموها « يبوس » أو « سالم » نسبة ، في كل حال ، الى اسم أحد جدودهم . فلا علاقة لليهود اذن بانشاء المدينة ولا بقدسيتها ، قط ، اذ

* تنتسب « الصهيونية » الى « صهيون » . ومن المفارقات المحزنة ان هذا الاسم كنعاني سابق لوجود الاسرائيليين . وهو اسم للمرتفع . (انظر ما كتبه الاستاذ ماكنزي في دائرة المعارف البريطانية سنة ١٩٦٣ في مادة Zion) .



القـــدس اليبوسية التاريخية
والقـــدس القديمة

بنى اليبوسيون العرب مدينة القدس التاريخية على مرتفع الضهور (أوفل) في نحو ٤٠٠٠ ق . م . وفي سنة ١٠٠٠ ق . م . افتتح داود هذه المدينة فدخلها بذلك اليهود لأول مرة في التاريخ . وبعد سبعين سنة من ملك داود وسليمان تجزأت مملكة القدس .

عندما تم انشاؤها ودُشِّنت قدسيتها لم يكن اليهود كجماعات أو أصحاب ديانة قد ظهروا بعد في عالم الوجود .

وكان من الممكن ان يبني اليبوسيون القدس على مرتفع صهيون الذي يقع الى الغرب ، لانه أوسع وأعلى من مرتفع الضهور ، ولكنهم اختاروا هذا الاخير لانه اقرب الى مصدر الماء .

ومن الواضح ان القدس بنيت تدريجاً ،لا دفعة واحدة ، ولكن قسما من الاسر اليبوسية في كل حال سكن حوالي ذلك المرتفع وفي السهول والاودية المجاورة ، في قرى صغيرة وبيوت بسيطة ودساكر متفرقة بنيت من الحجارة والطين ، وفي بيوت اخرى من الشعر وفي الكهوف الصخرية . وكان الذي يقف على مرتفعات القدس يرى القرى والبيوت واصحابها من الرعاة ومواشيهم على التلال المرئية من تلك المرتفعات .

والقسم الشمالي من مرتفع الضهور (أوفل) أعرض من الجنوبي ، وتحيط به أودية سلوان (قِدْرون) من الشرق والجبّانة (التروپين) من الغرب ، ويلتقي معها وادي جُهَيْنة من الجنوب . ويتصل هذا المرتفع من قسمه الشمالي مع أرض الحرم بأرض مستوية لا وادي فيها . ويمتد بارتفاع تدريجي نحو الشمال فيتجاوز حدود مابنيت عليه القدس اليبوسية حتى يتصل بأرض الحرم . والجهة الشمالية من أوفل، التي لا يحميها واد، ضيقة ، ولذا لم يكن من الصعب الدفاع عن المدينة من تلك الجهة . على ان وادي الجبانة الذي كان يقع غربي المدينة مُلِيءَ مع الزمن بالركام والاتربة فأصبح المرتفع في الوقت الحاضر غير محدود بواد من الغرب ، كما كان محدوداً زمن اليبوسيين .

وينحدر مرتفع الضهور تدريجاً الى جهة الشرق حتى يصل الى قاع وادي سلوان . ويبلغ الفرق بين أعلى المرتفع واسفل الوادي عند موقع عين الماء نحو ٤٠ متراً . وعندما توسعت القدس اليبوسية كان اتجاه التوسع الى الشرق

ايضاً ، وذلك ببناء السلاسل الحجرية وتسوية التراب عليها لتبنى من فوقه البيوت الجديدة . وكثيراً ما كانت هذه السلاسل تنهار من جراء المطر او الزلازل فتنهار معها البيوت . والادلة الاثرية على ذلك وافرة .

وكانت المساحة التي تشغلها القدس خلال الالف الثاني قبل الميلاد تقدر بنحو ٤٠ دونماً ، اي ان مرتفع الضهور لم يكن مشغولا كله آنئذ بالابنية . ولا نعرف عدد سكان القدس في ذلك الزمن ، ولكن يمكن القول ، من مساحتها وعادة السكان آنئذ في بناء البيوت متلاصقة ، ان عددهم كان نحو ٣٠٠٠ نسمة .

وقد اتسعت مساحة القدس المبنية بعدئذ ، ولكن بقدر محدود يتناسب مع مساحة المرتفع كله ومنحدراته الشرقية .

وقدسوَّر اليبوسيون المدينة من كافة جهاتها ، وان كان الاثريون لم يعثروا على اسس السور كاملة . ويبدو ان السور بني في نحو ٢٠٠٠ ق . م . والسور اليبوسي الذى كان يحيط بمدينة القدس التاريخية اليبوسية هو بطبيعة الحال خلاف السور الذي يحيط الآن بالقدس القديمة .

وتسمى عين جيحون عين أم الدَّرَج . وتقع مقابل الجزء الشمالي من مرتفع الضهور . وكانت هذه العين خارج السور ، ولذلك حفر اليبوسيون نفقاً منها الى داخل السور ليتمكنوا من الشرب في حالات الحصار . ويفضي النفق الى بركة في الداخل دعيت فيما بعد « بركة سلوان » . والظاهر ان داود فتح القدس بالدخول اليها من هذا النفق . ولا يزال العلماء الاثريون يسمونه « نفق اليبوسيين » (انظر الى الرسم ص ٢٠) .

ويبدو من الآثار أنه كان ليبوس باب خاص من سورها الشمالي يؤدي بطريق خاص الى عين الماء . ويمتد الآن طريق حديث الى العين يظن أنه قريب من طريق اليبوسيين او مطابق له .

ويوجد مصدر آخر للمياه قديم ، وهو بئر ايوب . وتقع هذه البئر مسافة ٢٠٠ متر الى الجنوب من أوفـل . ولم يكن مـن الممكن الاستفادة منهـا ايام الخطر .

وبعد ان اتسعت القدس اصبحت « مملكة مدينة » . وقد كان هـذا نظام المدن عند الكنعانيين ، بعد تجاوزهم دور البداوة وحياة القرى الصغيرة . وكانت مملكة المدينة في الغالب تضم قبائل او أجزاء منها ، كما تضم الاحسن حالا من الاسر القبلية ، في حين كانت بقية الاسر تسكن حـول المدينة . وفيما كانت حياة البدو تعتمد على الماشية والرعي ، فقد كانت حياة القرويين تعتمد على الزراعة . اما المدينة فكانت تعتمد على التجارة والصناعة البسيطة دون ان تتخلى كلياً عن اقتصاد البدو والقرويين ، فقد كانت شبه اقطاعية . وكان لها دائماً سور قوي يدرأ عنها غارات اعدائها .

ومع أنه كان لهذا النظام حسنات، فقد كان ايضاً سبب ضعفٍ وتفكك في حياة الكنعانيين السياسية ، اذ لم تتكتل هذه المدن حول واحـــدة منها تكون قاعدة لها وأساساً لتكوين مملكة موحدة امبراطورية . ولهذا كان يسهل على الغازين الاقوياء ان يقتحموا مدنهم وبلادهم ، بسببٍ من عدم الترابط والاتحاد ، كما ان هذا النظام المفكك في فلسطين لم يؤد الى مثـــل النهضات الحضارية التي توالت في وادي النيل ووادي الرافدين .

وقد امتدت مملكة القدس أيام اليبوسيين الى حـدود رام الله الحديثة من الشمال وانحدرت الى بعض الاماكن السهلية من الجهات الاخرى .

ولا تترك لنا الآثار التي كُشِفَ عنها الى الآن سجلا باسماء ملوك اليبوسيين كما تعاقبوا على القدس ، والا رجح اننا لن نظفر بشيء كثير من هـذا الا من المصادر الادبية والتاريخية . والتوراة في هذا الصدد ما تزال المرجع الاساسي .

وقد عُرِف من ملوك القدس القدماء وحكامها اليبوسيين سالم اليبوسي ، وملكي صادق وأدوني صادق وأدوني بازق . ومع ان التاريخ الذي وضع فيه أول حجر في اول بيت في المدينة على مرتفع أوفل غير معروف ، ولا أمل في معرفته ، فان التاريخ سنة ٤٠٠٠ ق.م. تقدير معقول ، لاننا نعلم ان ابراهيم مرّ بالمدينة سنة ١٩٠٠ ق.م. تقريباً ، وكانت آنئذ مدينة متكاملة ذات قاعدة ملكية وهياكل دينية ومركز مقدس . وكانت المدن العمورية والكنعانية (واليبوسية) آنئذ قد بلغت شأوا عالياً من الحضارة . ولا بد بطبيعة الحال من زمن لهذا التكامل . والا رجح ان يكون هذا قد احتاج الى ٢٠٠٠ سنة ، على أقل تقدير ، قبل زيارة ابراهيم الذي يعتبره اليهود اباهم الاول .

وبما ان العبرانيين دخلوا القدس لاول مرة زمن داود ، وذلك سنة ١٠٠٠ ق . م . ، فتكون المدينة نفسها قد بنيت وسكنها العرب قبل دخول داود اليها بنحو ٣٠٠٠ سنة . اما ما حولها فقد سكنه العرب قبل ذلك بكثير . وهذا كله يعني ان اليبوسيين العرب أسسوا مدينة القدس منذ نحو ٦٠٠٠ سنة من ايامنا هذه . وفي ذلك الوقت البعيد كان قد مضى على انشاء اريحا نحو ٣٠٠٠ سنة ، أي أنها سكنت قبل ٩٠٠٠ سنة من اليوم .

ولا ترد التوراة نفسها والمراجع الاثرية مدينة القدس الى اقدم من عهد اليبوسيين . ولا يعرف لها اسم قبل « يبوس » او « سالم » .

ونعرض الآن للاسماء الرئيسية المختلفة التي دعيت بها المدينة عبر تاريخها الطويل .

٤

قدسية المدينة
واسماؤها العربية

دلت الحفريات الاثرية في القدس اليبوسية على وجود معابد خاصة لعبادة وثنية قديمة . ووُجدت معابد وثنية تشبه المعابد التي كان يقيمها الكنعانيون لالههم بعل ، واقام اليبوسيون لآلهتهم معابد مثلها .

وقد بنى اليبوسيون في القدس هيكلا لالههم الاعلى « شالم » على مرتفع الضهور نفسه ، ولهذا اعتبروا المدينة مقدسة ، وسموها ايضاً « اورشالم » اي مدينة الاله شالم . وعندما مر ابراهيم بالمدينة في نحو سنة ١٩٠٠ ق . م ، او بعد ذلك ، كانت مقدسة في نظر اهلها . وتشير التوراة الى ان ابراهيم في زيارته تلك للقدس دفع لملكها ، وهو ملكي صادق ، قيمة العشر من كل ما يملك ، وبارك ملكي صادق ابراهيم ودعا له ، قائلا « مبارك ابرام من الله العلي مالك السموات والارض » ، مما يشير الى ان اليبوسيين كانوا قد ارتفعوا عن دور الوثنية الاولى . وكان ملوك القدس ، شأن اكثر رؤساء ممالك المدن الكنعانية ، يجمعون وظيفة الكاهن الى عمل الملك ، ولذا كان ملكي صادق يدعى « كاهن الله العلي » . وتشير التوراة ايضاً الى قدسية المدينة قبل دخول ابراهيم اليها .

وقدّس اليهود المدينة اول الامر على طريقة اليبوسيين وديانتهم . ثم نجد منهم زمن سليمان وبعده من يصبأ عن عباده يهوه الى عبادة بعل وآلهة

اليبوسيين والكنعانيين الاخرى . والتوراة تشير الى هـذا الصبوء (ارميـــا ٣٢/٣٥) . وقد بنى سليمان هيكله على طراز هياكل اليبوسيين والكنعانيين. وهـذا كله طبيعي لجماعات بدوية من القفر لم تر بعددينا أو حضارة ، ولكن مشكلتنا هي الدعاية الصهيونية التي تقلب الحقائق ، وكأن ارض كنعان العربية هي « ارض اسرائيل » منذ الازل ، وكأن الديانة اليهودية هي الاولى والاخيرة .

اما اسماء القدس التاريخية المختلفة ، فقد ورد منها في التـوراة اســم « يبوس » ، كما وردت نسبتها الى اليبوسيين ، الذين روت عنهم أنهم كانوا يسكنون «اورشليم » ، وان اليهود لم يقـــدروا على طردهم ، ولذلك استمر اليبوسيون في سكنى المدينة على الرغم من الغزوة العبرانية .

وسمى اليبوسيون ايضاً المدينة « اورسالم » أي مدينة السلام . وقيل ان النسبة هي الى سالم أحد شيوخ اليبوسيين . و « أور » تعني المدينة او القاعدة . وفي رواية ان اسم « سالم » او « ساليم » أطلق على المدينة قبل اسم يبوس .

ووردت « اورسالم» في رسائل تل العمارنة ، وهي رسائل كتبت على الواح من الطين بعث بها حاكم القدس العربي عبد حيبا ، وحكام غيره من المدن الفلسطينية والسورية ، يستنجدون بفرعون مصر من هجمـــات « العبيرو » (العبرانيين) الذين كانوا قد بدأوا يدقون ابواب فلسطين سعياً وراء الرزق والارض ، وذلك خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وورد الاسم «يوري سليمو » في سجلات الملك سنحاريب الاشوري (القرن السابـع قبل الميلاد)

وقد ورد اسم « اورشالم » في التوراة ، التي كثيرا ما تورده مختصـــرا ، « شالم » فقط . ودعاها اليبوسيون والكنعانيون « اورشليم » و « يورشاليم » . وقد ورد الاسم على هذا النحو في « نصوص الطهارة » ، وهي الواح مصرية ترجع الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، أي القرن الذي يُظَنّ ان ابراهيم مر أثناءه بالقدس . « ويور» تعني مدينة كذلك . وشالم وشاليم اسم واحد .

واقرب شكل لاسم القدس كما يلفظه اليهود اليوم هو « يروشلايم ».ان هذا هو الاسم الذي عرف عند الآراميين العرب ، الذين كانوا في البلاد قبل ظهور اليهود ، والذين اشتق اليهود منهم ومن الكنعانيين لغتهم العبرية .

ولما استولى داود على القدس سمى المدينة باسمه ، فأخذوا يدعونها « مدينة داود » ، وبدأ اسم يبوس يختفي تدريجياً ، ثم اختفي فيما بعد اسم مدينة داود ، وعاد الاسم اورشالم الى المدينة .

وقد وردت معظم هذه الاسماء في التوراة . ويظن ان الاسم «بازق» الوارد في مطلع سفر القضاة يعني القدس ، نسبة الى ادوني بازق اليبوسي احد ملوك المدينة . وجاء هذا الملك بعد ادوني صادق الذي قيل انه كان ملك القدس حين حاول يشوع فتحها .

وفي اوائل القرن الثاني للميلاد سماها الامبراطور الروماني ادريان « ايليا كابيتولينا » ، اي « ايليا الكبرى » . وايليا من ايليوس اسم عائلة الامبراطور . وظل الناس يستعملون هذا الاسم مرة ، واسم « اورشليم » مرة ، وخاصة منذ منتصف القرن الرابع للميلاد . واسم « ايليا » هو الاسم الذي تضمنته العهدة العمرية التي حررها عمر بن الخطاب لاهل القدس عندما دخل اليها سنة ٦٣٨ م .

وبعد الفتح الاسلامي شاعت اسماء « القدس » و « بيت المقدس» و «دار السلام » و « قرية السلام » و « مدينة السلام » .

اما « القدس » فتعني في اللغة العربية الاولى (القديمة) — الطهارة ، كما تعني « المكان المرتفع الذي يصلح للزراعة » . و « بيت المقدس » هو البيت المطهر ، أي المكان الذي يتطهر به من الذنوب » . وفي القرآن الكريم « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » ، أي نطهر انفسنا لك .

وأما اسماء « دار السلام » و « قرية السلام » و «مدينة السلام » فإنهـا ترجمات لكلمتي « اورسالم ».و« اور » تعني قاعدة اومدينة . والقاعدة والدار متقاربتان ، وكذلك المدينة والقرية . وسالم بمعنى السلام ايضاً .

وكما ادعى اليهود ادعاءات كثيرة تتعلق بانسابهم واعدادهم واعمالهم، مما كشف التاريخ ويكشف باستمرار كذبه ، فإن لهم ادعاء في تسمية القـدس باسم « يرأه — شلم » . وهم يقولون « ان سام بن نوح قد سماها (شلم) ، أي السلام ، وابراهيم سماها (يرأه) بمعنى الخوف ، فقرر الله ان يسميها بالاسمين جميعا ، أي (يرأه — شلم) ، أي (اورشلـيم) ». والادعاء اسطوري من أساسه ، كما ترى .

من ذلك نلاحظ ان اسماء القدس كلها عربيـة الأصول ، يبوسيـة او كنعانية ، الا حين سماها داود وادريان باسميهما اللذين ذهبامع الايام . حتى الاسم «اورشليم » اسم كنعاني و « ييروشلايم » تعبير آرامـي ،عـــربي.
كما نلاحظ ان قدسية المدينة عربية الاساس ، فقد دشن اليبوسـيون العرب هذه القدسية قبل مرور ابراهيم بالقدس بألـــف سنة على الاقـل ، وهي مقدسة عربية قبل ان يفتحها داود باكثر من الفي سنة .

اما قدسيتها في نظر العرب المسيحيين منذ اكثر من الفي سنة وفي نظر المسلمين منذ اكثر من الف وثلاثمئة سنة ثم انتشار هذه القدسية في العالمين المسيحي والاسلامي فأمره معروف .

وكنا قد اشرنا من قبل الى ان اليبوسيين هم اول من وضـع حجراً في بناء القدس في التاريخ ، وسنرى فيما بعد انها ظلت مدينتهم ، وانهـــم لم يغادروهـــا ولم يقتلعوا منها ، كما غادرها او اقتلـــع منهـا الشـعوب الاجنبية عنها .

٥

اليبوسيون والكنعانيون العرب
وحضاراتهم

يبدو ان « الانسان العاقل » ظهر في بلاد العرب ، بما فيها فلسطين والقدس ، قبل أن يظهر في بقاع كثيرة من العالم . ولعل السبب في ذلك اعتدال المناخ وخصب الارض اللذين ظهر في كنفها وعاش .

وكان هذا التطور قد بلغ حده منذ حوالي عشرة آلاف سنة قبل الميلاد. وعندما استتبت خطوات التطور المشار اليه اخذ الانسان يتدرج في سلم الحضارة بسرعة متزايدة ، اذ ان كل اكتشاف او اختراع كان يمهد لمزيد من الاكتشافات والاختراعات ، وخاصة بعد اختراع الكتابة وتدوين مراحل التطور ومظاهره .

وكانت القبائل العربية الاصول ، عمورية وكنعانية (ويبوسية وفنيقية) وغيرها ،عندما هاجرت من جزيرة العرب الى القدس وفلسطين وأرجاء الهلال الخصيب الاخرى، قد بلغت حدا من الذكاء والخيال جعلها تستفيد من محيطها الجديد، فبنت القرى والمدن وحسنت أساليب الزراعة واخترعت الكتابة وطورت أساليب معيشتها ونفذت الى مظاهر أرقى من الدين والعلم والشعر والادب والفن جميعاً .

ويبدو ان ما بين الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد كان حقبة تم فيها شيء كثير من التفتح الذي عددنا مظاهره ، والذي نشر « ممالك المدن » في القدس وماحولها وارجاء كثيرة من الهلال الخصيب ، وبخاصة سورية ولبنان وفلسطين . وقد عرف هذا النظام السياسي بعدئذ عند اليونان والرومان .

ومع ان الشعوب والقبائل العربية، كلدانية وآشورية وبابلية (في العراق) وجرزية وغيرها (في مصر) كونت ممالك وامبراطوريات، فانه يبدو أن الاوضاع الجغرافية وقلة مصادر المياه لم تفسح مجـــالا في فلسطين لمثل هذا التطور، وظـل شكل الحكم فيهـا على نمط ممالك المدن، الذي تكون فيه المملكة مؤلفة من مدينة تقطنها قبيلة أو مجموعة من القبائل أو أجزاء منها، تحيط بها قرى ودساكر صغيرة ومضارب بدوية واراض تابعة لها، ويرأسهـا أبرز شيوخها ملكاً عليها .

وكان كثيرون من سكان القرى والدساكر والمضارب يأوون، عنـد مداهمة العدو او تجهم الطقس، الى المدينة نفسها فيتقون العـــدو بأسوارها العالية المنيعة، ويدرؤون شرور الطقس باللجوء الى المساكن المتينة .

وكانت القدس « مملكة مدينة »، يبوسية (او كنعانية) على نمط ممالك المدن الكنعانية . ولم تكن لهـــا اول الامر ميزة خاصة تمتاز بها، ولكن موقعها المتوسط واستمرار قدسيتها اضافا شأناً جديداً الى شأنها السابق حتى اصبحت شبه عالمية .

وقد وجدت في فلسطين نفسها، كما اشرنا قبـلا، تراكيب عظميــة وجماجم بشرية لقبائل عربية عاشت هناك منذ عشرة آلاف سنة قبل الميلاد تقريباً . وقد ظل هذا العنصر العربي، او الذي يغلب عليه العنصر العربي، في فلسطين منذ ذلك الوقت الى ايامنا هذه .

ونحن هنا بالطبع نتكلم عن فترة لم تكن الجماعات العبرية فيها قد نشأت بعد، لانهـا تشكلت في سينـاء وفلسطين في نحـــو سنة ١٣٠٠ ق . م .، عندما ظهرت أول نواة لاسرائيل في الجماعات التي قادها موسى من مصر، ومن انضم اليها، والارجح بعد ذلك، خـــلال الالف الاولى ق. م. في فلسطين نفسهـا . ولا يعتبر الاخصـائيون ابراهيم بـداية تكوين اليهود، بل ان منهم من يشك في نسبتهم اليه . ولم تكن ديانته على كل حال ديانة يهـــودية .

وعندما نتحدث عن سكان مـــا حول القدس، فاننا لا نمد الحديث هنا الى أبعد من ٥٠٠٠ سنة قبل الميـلاد، حين وجـــد الانسان العربي هناك،

بدلالة آثاره التي اكتشفت مؤخراً .

والعنصر العربي القديم ، مثله اليوم ، ذو رأس مستطيـل وجسم معتدل وتقاطيع دقيقة . وليس الانف البارز من مزايا العربي ، ولكنه من مزايا اليهودي الذي نشأ من خليط فيه شيء من العنصر الحثي ، ذي الانف البارز.

ولما نشأت القدس على الصورة التي شرحناها كانت حياة الناس آنئذ ، عموريين و كنعانيين وغيرهم من القبائل العربية ، بـــدوية او شبه بدوية . وكانت اللغة والاسماء عربية قديمة ، مشتقة من اللغة التي يسميها علماء الافرنج « السامية الاولى » ، ونسميها نحن « العربية الاولى » . ومنها انحدرت اللغة الكنعانية التي تعتبر لهجــة من لهجات العربية الاولى . وهنـــاك شبه بين الكنعانية وبين العربية الفصحى التي تبلورت بعد ذلك بزمن طويل . فكلمة « بيت » في العربية الاولى القديمة (وفي العربية الفصحى) هي « بـت » في الكنعانية . وكلمة « أحو » القديمة هي « أخو » الفصحى والكنعانية أيضاً . و « عين » القديمة هي « عين » الفصحى كذلك . أما المقابل الكنعاني لهـا فهو « عن » ؛ وهكذا ، وان كان تطور الكنعانية قد خرج بالطبع الى صعيد لا يسهل فيه دائماً الربط بـــين الكنعانية والعربية الاولى ، التي كان موئلها جنوبي جزيرة العرب .

والشبه الذي نجده في الكلام بين الكنعانية والعربيــة الاولى لا نجده الى الحد نفسه في الكتابة ، فقد اشتقت الكتابة الكنعانية من الكتابة المسمارية التي اخترعت في العراق ، ومن الكتــابة الهيروغليفية المصرية . فيكون الخط الكنعاني قد اعتمد عليهما معاً ، وان كنا نلاحظ أنه اقرب شكلا الى المسمارية . وكانت التجارب والمحاولات التي ادت الى اختراع الخط الكنعاني (الاوغاريتي) تستهدف كتــابة اسهل وابسط . وقـــد تم ذلك في سورية وفلسطين خلال الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد .

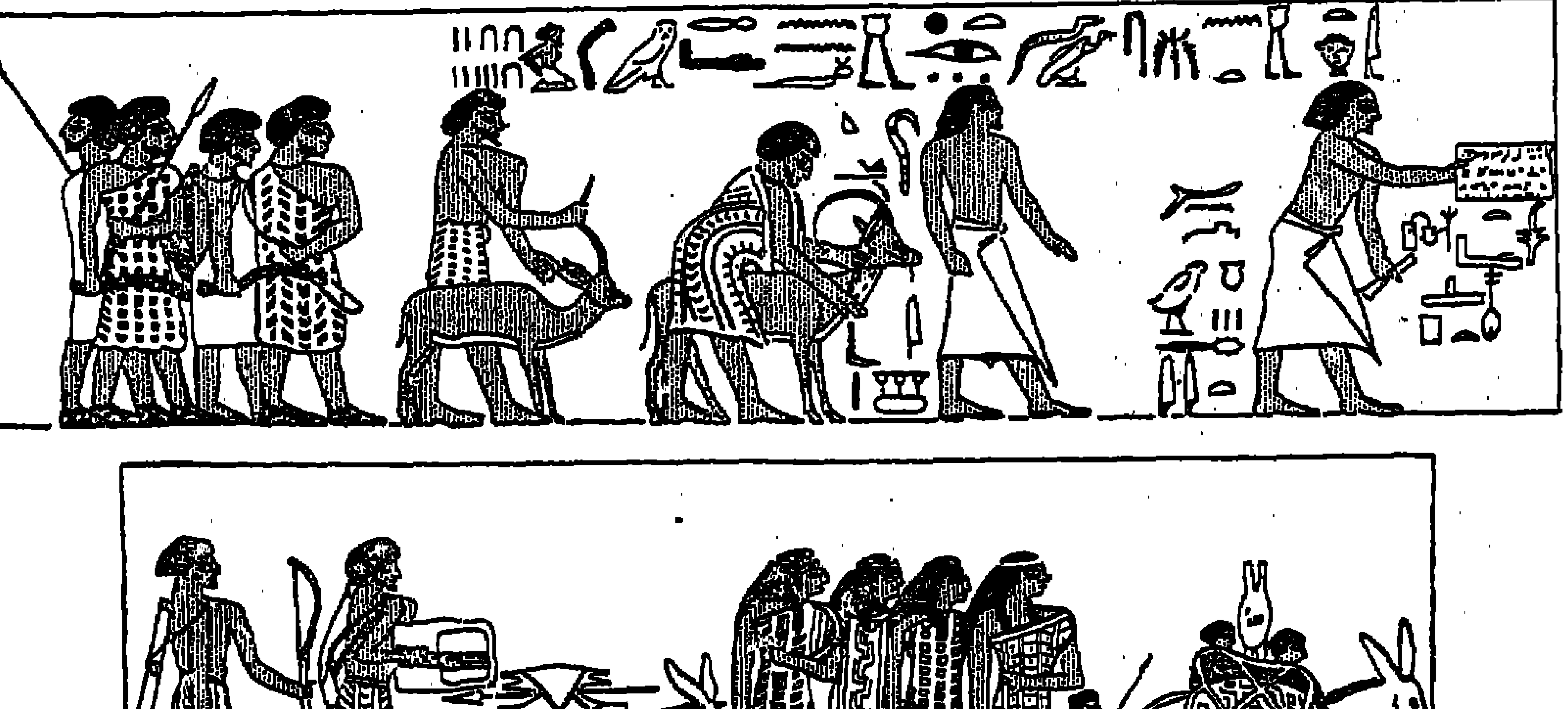
أما اللغة العبرية فمشتقة من اللغة الكنعانية مباشرة ومن اللغة الآرامية بعد ذلك . والارامية مثل الكنعانية ، لهجة من العربية الاولى .

والخط الكنعاني يشبه الخط العربي القديم في جنوبي شبه الجزيرة، كما يشبه الخط الفنيقي. وهو لا يشبه الخط العربي الحديث، إلا في بعض أجـزاء من الحروف. وقد أدت التجارب والمحاولات التي ذكرناها إلى نشوء الأبجـــدية الخطية المستقيمة في أشكال حروف اللغة العربية الحديثة.

وكمدينة يبوسية (كنعانية) تأثرت القدس فيما بعد بتفاعلات هذه النهضة وتأثيراتها.

وفي موضوع **المساكن** في القدس التاريخية نقول إن البيوت كانت تبنى من الحجر المتوافر محلياً. وكان البيت عادة يتألف من طبقة واحدة. والغرف صغيرة والمباني متلاصقة والشوارع ضيقة متعرجة. وقد أدى التطور في البناء إلى زيادة في عدد المساكن التي تتألف من طبقتين، العلوية للسكن والسفلية للخزن والحيوان. وهنالك ما يشير إلى استعمال المجاري فيما بعد لتصريف المياه التي كان لا بـــد من تجمعها أيام المطر في باحات البيوت والشوارع غير المرصوفة. وكانت الإسطحة حجرية أحياناً وطينية أحياناً أخرى. وكانت هذه ترصف على عوارض من الخشب وأغصان من الشجر يوضع فوقها الطين. وكانوا « يطيّنون » الاسطحة منعاً للوكف (الدلف) بالمدحلة الحجرية على الطريقة التي لا يزال أهل قرانا يتبعونها الى اليوم. وقد بنيت القباب لسطوح عديدة من المنازل القديمة في القدس، نقلاً عن المساكن في العراق. وكان الماء يتجمع من سطوح هذه المنازل في آبار يخزن فيهـــا، كما لا نزال نرى في بعض القرى المجاورة للقدس. وكانت المساكن تبنى من الحجارة أو من طوب الطين، بحسب المادة المتوافرة.

وفي نحو القرن الثامن عشر قبل الميلاد كان الحمار **واسطة النقل** الرئيسية في جهات القدس وفلسطين. وقد استخدم الجمل والحصان بعد الحمار، وذلك بعد أن تم تدجينهما في هذا الجزء من بلاد العرب. ومع أن الجمل كان معروفاً من قبل في الجزيرة العربيـــة وفلسطين بصورته الوحشية، فإن تدجينه





لوحـــة بني حسن

صورة أثرية لجماعة من العموريين العرب يتنقلون بتجارتهم بين ارض كنعان ، في شـــرقي الاردن وغربيه ، وبين مصر ، في نحو ١٩٠٠ ق.م.

واستخدامه تمّا بعد ذلك،في نحو ١٢٠٠ ق.م. واستخدم الحصان في نحو هذا التاريخ ، وان كان هو أيضاً قد عرف في البلاد قبل ذلك اثناء تحركه من آسيا الوسطى والصغرى الى الجنوب ، ثم أدخل الى جزيرة العرب ، وهناك حافظ على نقاء جنسه ومزاياه الشهيرة .

وتدلنا التماثيل والصور الأثرية القديمة على أن العموريين والكنعانين (واليبوسيين) كانوا يلبسون الازارات والسراويل القصيرة الى الركبة ، أو الجلابيب (القمصان) الطويلة الى ما تحت الركبة،وحدها أو فوق السراويل. وغالباً ما كان الجلباب يغطي أحدى الكتفين فقط ، للرجال والنساء على السواء . ولوحة بني حسن توضح لنا ذلك بجلاء ، وهي لقبيلة صغيرة من العموريين العرب في فلسطين والاردن منذ نحو ١٩٠٠ ق.م. وكانت ملابس النساء أطول من ملابس الرجال . أما لباس الرأس فكان شالاً يلف كالعمامة ويربط بطرف منه أو بعقال . وأصبح الجلباب فيما بعد كاملاً يغطي الكتفين ويضرب حوله حزام يجمع جانبيه، ومنه تطور القَباء أو « القنباز » الذي لا يزال الفلاحون العرب وبعض البدو يلبسونه الى الآن .

وكانت الملابس تتخذ من جلود الانعام وفرائها . ثم تبع ذلك استعمال الصوف المنسوج أو ربما الكتان .

وكانت النعال تتخذ من الجلد ، يصنع على هيئة صندل للرجال وحذاء مرتفع للنساء . وكان النساء يتخذن الحُلَى من الاقراط والدبابيس النحاسية والخرز والصدف ، كما كن يستعملن الكحل زينة للعيون ووقاية لها .

وكانوا ينامون على مراتب (فرشات) تفرش على حصير ، وكان الميسورون منهم يستعملون الطاولات والكراسي .

وفي الطعام عرف الكنعانيون القمح والشعير والعدس ، وصنعوا منها الفريكة والطحين. وقد وجدت في الاثار أدوات حجرية تمثل مطاحن قدماء

الكنعانيين . وقـــد تطورت المطاحن اليدوية للقمح حتى أصبحت شبيهة بالمطحنة المستعملة في القرى العربية اليوم .

وهناك ما يدل على أنهم عرفوا « الطابون » و « التنور » لإعـداد الخبز منذ ١٣٠٠ ق.م ، أو قبل ذلك .

وعرفوا الارز مؤخراً اذ زرعوه في الاراضي الرطبة وصنعوا منـه أكلة « المجدرة » التي تصنـع من العدس والارز أو من العدس والبرغل . وعرفوا الحليب واللبن والجبن ، كما عرفوا الزيتون والعنب والتين والجميز والرمان ، والعسل والدبس والخمر . وعرفوا كذلك مأكولات اللحوم ، وبخاصة لحوم الغنم ، كما اكلوا لحوم الطير والسمك . وكان السمك يجلب الى القدس من طبريا والساحل . و « المنسف » الذي نعرفـــه اليوم باللحم والارز تطور من أكلة «الثريد» (الفتة) الكنعانية القديمة التي كان يطبخ فيها اللحم مع الخبز ، وعرفوا الخيـــار وبعض الخضراوات المماثلة ، كما عرفوا البصل والثوم والكراث . ويبدو أنهم لم يعرفوا الا في وقت متأخر البندورة والحمص والكوسى والموز والمشمش والخوخ وأكثر الحمضيات .

ولم تكن ملابس العبرانيين تشبه ملابس العرب ، وان لم تخل من الاقتباس عن ملابس العرب وعاداتهم حين عاشوا بينهم . وقد اقتبس العبرانيون ملابسهم عن ملابس سكان ارمينيا وبلاد الحثيين في آسيا الصغرى وما يليها . وكان لباس الرجل رداء طويلا من فوقه عباءة ذات أهداب (كشكش) . وكانت هذه تصنع في الغالب من الصوف . اما غطاء الرأس فطاقية تشد الى الرأس بقطعة من قماش . وكان الحـذاء عالياً له مقدمة ملتفة الى أعلى مثل أحذية الحثيين . وكانت ملابس النساء طويلة اذا قورنت بملابس الرجال . وقـــد تحدثت الاثار والمراجع عن طرائق الطعـام والنوم عند الاسرائيليين القدماء قبيل غزوهم فلسطين (١٢٦٠ ق.م وبعدها) حديثاً ينم على اختلاف اصولهم ، كلها أو أغلبها ، عن الأصول العربية .

٦

الشعوب الأجنبية

التي غزت القدس

عندما هاجرت القبائل العمورية والكنعانية من جزيرة العرب الى نواحي القــدس واجزاء فلسطين الاخرى قبــل الميلاد بثلاثة الاف سنــة ، أو أكثر ، لم تكن البلاد خالية من السكان، وانما عاش فيها قبل عشرة آلاف سنة ق. م. إنسان بدائي دعي «انسان فلسطين» ، وبعده انسان دعي «انسان البحر المتوسط». وقد نشأ هذان في البلاد نفسها، أو ربما جاء بعضهما من جزر البحر المتوسط وشواطئه أو من جهات اخرى .

وقد نزل اليبوسيون والكنعانيون فيما حول القدس ، ثم انشأوا المدينة بالتدريج على النحو الذي شرحناه من قبل .

وكان الهلال الخصيب مطمح انظار شعوب عديدة زحفت اليه من الخارج، وبخاصة من الشمال والشرق، مثل آسيا الصغرى وارمينيا والقفقاس والتركستان وايران ، أو من الغرب مثل جزر اليونان . وقــد اجتازت تلك الشعوب سلاسل الجبال والانهار والبحار التي كانت تفصلها عن بلاد الهلال الخصيب وحاولت أن تستقر فيها . ومن الشعوب المذكورة الهكسوس والحثيون والحوريون والفلسطينيون والعبرانيون . وقد ازعجت هذه بمحاولاتها سكان البلاد الكنعانيين المستقرين المتحضرين ، ولكنها لم تلبث ان جلت عن البلاد او ذابت في سكانها ، وظلت هذه في اساسها يبوسية أو كنعانية أو عمورية أو غيرها من الشعوب العربية .

وقد ذكرت التوراة الشعوب التي كانت في القدس وما حولها ، عندما هاجم اليهود فلسطين ، واعتبرتها سبعة ، وهي الاموريون (العموريون) والكنعانيون والجرجاشيون والفرزيّون والحثيثون والحويّون (الحوريون). وجميع هذه الشعوب عربية الاصول ، ما عدا الهكسوس والحثيين والحوريين الذين غزوا البلاد أو تسللوا اليها قبل غزوتي الفلسطينيين والعبرانيين اللتين وقعتا في وقتين متقاربين . وقد تمت غزواتهم جميعاً خلال الالف الثاني (٢٠٠٠ — ١٠٠٠) قبل الميلاد .

أما **الهكسوس** فهم جماعات غامضة الاصول ، وان كانت المصادر القديمة تعتبرهم من الساميين ، أو العرب . والارجح انهم مزيج من قبائل وجماعات عربية الاصول ، وآسيوية من القوقاس وما جاورها . وقد أسسوا بين ١٧٠٠ و ١٥٠٠ ق. م. مملكة مترامية الاطراف شملت القدس وما حولها ، غير ان حكمهم الحقيقي لم يدم أكثر من مائة وخمسين سنة ، وان كان تواجدُهم متفرقين في البلاد ، دون حكم ، قد استغرق مدة أطول . وهم لا يذكرون في التوراة مع الشعوب التي تعددها سكاناً لمدينة القدس .

والحثيون من سكان آسيا الصغرى لا من جزيرة العرب . ويتردد اسمهم في التوراة كشعب من شعوب القدس وفلسطين . وقد أسسوا مملكة تمتد من حلب الى موقع أنقرة وشواطيء البحر الاسود . وقد عاصرت هذه مملكة الحوريين خلال فترة طويلة من أيامها .

واستمرت مملكة الحثيين من ١٧٥٠ الى ١٤٥٠ ق. م. ، ثم توسعت في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق. م. ، ثم امتدت الى الجنوب ، ولكنها لم تتجاوز دمشق . وعلى هذا لم تمتد الى القدس . وقد سكنت جماعات قليلة منهم فيما يبدو بجوار رام الله والخليل . وذُكرت النساء الحثيات في التوراة ضمن النساء اللواتي أحببن سليمان وأسكنهن قصره أو قصوره في القدس .

وأما الحوريون فهم الذين تسميهم التوراة « الحويين » . ويتردد اسمهم فيها كشعب من شعوب فلسطين . واصل هذا الشعب مناطق البحر الاسود وأرمينيا . وقد أسس الحوريون مملكة في نحـو سنة ١٥٠٠ ق.م. ، ولكن قسماً من حدودها كان خارج الهلال الخصيب . وقد اندثرت مملكتهم في نحو سنة ١٢٠٠ ق.م. وكانت جماعات محدودة منهم تقيم في نابلس وشمالي فلسطين. وقد ظل عددهم محدوداً جداً ازاء عدد الكنعانيين الذين كانوا دائماً يؤلفون أكثرية السكان وسوادهم .

وجاء الفلسطينيون من جزر اليونان، وبخاصة جزيرة كريت، وحلوا في ساحل كنعان الجنوبي بين يافا وغزة ، في نحو ١٢٠٠ ق.م. وقد أخضعوا الساحل المذكور لحكمهم ثم استولوا على معظم الأراضي السهلية الواقعة بين الساحل الذي حلوا فيه والجبل ، ولكنهم لم يصلوا الى القدس . ومع أن حكمهم كان خاضعاً لنفوذ مصر، فانهم اندمجوا مع الزمن في السكان الكنعانيين فتكلموا لغتهم ، واتخذوا طريقتهم ، واعتنقوا ديانتهم ، وذابوا مـع الزمن فيهم ، بعد ان طبعوا اسمهم على فلسطين كلهـا . وقـد وقعت بينهم وبين العبرانيين حروب متعددة، اشتهر فيها شمشون «الجبار» أحد قضاة اسرائيل، الذي تصوره الافـلام الصهيونية وكأنه بطل في رواية كاوبوي ، وما كان في الحقيقة الا « وغداً محتالاً » ناوش الفلسطينيين مناوشات على الحـدود اصابت الاسرائيليين أنفسهم بكل اذى وهزيمة * .

وأما العبرانيون فقد غزوا أريحا سنة ١٢٦٠ ق.م. تقريباً، قادمين من الشرق والجنوب الشرقي، كما غزوا القدس، سنة ١٠٠٠ ق.م.، وأسسوا فيها مملكة دامت سبعين سنة، ثم تجزأت تلك المملكة الى مملكتي القدس والسامرة الصغيرتين ، كما سيجيء ، ثم سُبِيَ اليهود من هاتين المملكتين الى العراق ، وزالت بعد ذلك ايـة سيادة سياسية لليهود في فلسطين ، ولم يلبثوا أن ذابوا في سكان البلاد العرب أو انعزلوا في مجتمعات خاصة أو غادروا البـلاد .

* John Bright History of Israel, SCM Press Ltd. , Bloomsbury St. , London, 1967, p. 156.

ولولا عودتهم أو اعادتهم الى القدس وفلسطين في شكل الغزوة الصهيونية لما جاء لهـــم ذكر . ولسوف ينتهي أمرهم الى ما انتهت اليــه غزوات من قبلهم من الحثيين والحوريين والفلسطينيين . ولكن هذه الغزوة الحديثة ،التي بدأت في أوائل العشرينات من هذا القرن، جاءت مدعمة بالاستعمار البريطاني الذي حل في البلاد في أواخر سنة ١٩١٧، ثم بالامبريالية الامريكية بعد سنة ١٩٤٨ ، ولها أهمية خاصة ، ولذا سنتوسع قليلاً في بحثها .

٧

الصلة الأولى لليهود
بالمدينة المقدسة

يربط اليهود نسبهم بابراهيم على أنه ابوهم الاول . وتذكر التوراة أنه رحل من العـراق الى سورية ، ومنهـا الى فلسطـين ، فمر بنابلس ومـا حولها . وهنا وعده الرب بان تكون « هذه الارض » ملكاً له ولأنساله من بعده . ولم تحدد الارض، ولكن الاشارة جاءت من هناك (جهات نابلس) الى الشرق والغرب ، دون حدود . واننا لنرى من سياق التوراة ان ابراهيم لم يكترث بهذا « الوعد » ولم يقم في الارض ليتخذها ملكاً له أو وطناً ، بل غادرها الى القدس ، ثم لم يلبث ان مضى في سبيله الى الجنوب، ومن هناك الى مصر ؛ ثم عاد الى فلسطين . وعندما حضرت الوفاة زوجته سارة في الخليل اشترى ارضاً بماله الخاص ليتخذها مقبرة لها، دون ان يبدو منه تصرف يدل على ملكية مستمدة من وعد الرب. بل اكثر من ذلك، اذ انه « كلم بني حِثّ [الحثيين] قائلا : أنا غريب ونزيل عندكم. . . وسجد لبني حث » عندما تنازلوا له عن الارض . وقد جاء ذلك كله ، على الرغم مما فيه من تضارب ، بنص التوراة نفسها ، (تكوين ١٧/٨ و ٢٣/٤–٧) . وتصف التوراة ابراهيم أيضاً بأنه كان « عبرانياً » . وسنعالج معنى هذا الاصطلاح – عبراني – بعد قليل .

ومع ان اسماعيل من نسل ابراهيم، وولد قبل اسحق بثلاث عشرة سنة ، فان الوعد عند اليهود والصهيونيين لا يشمله ، وكأن الخالق يميز بين خلقه أو يعطي حق شعب آمن مواطن الى شعب غريب مهـاجم . ومن المعلوم أن اسماعيل يُعتبر أبا العرب العدنانيين. واذا صح ان إلهاً يعد ارض اناس مواطنين لأناس عابرين، فاسماعيل ذو حق مثل أخيه ، ان لم يكن أحق، لأنه ولد قبله.

وبعد ابراهيم جاء ابنه اسحق ثم يعقوب (اسرائيل) بن اسحق . وقد حاولا ان يشتريا ارضاً في جهات نابلس، فعارض السكان البيع وحبط المسعى. وذكرت التوراة ان الرب وعدا يضا كلا منهما ان يُملكه هو ونسله ارض فلسطين وما حولها، أو الاراضي الممتدة « من النيل الى الفرات » . ومع ذلك فقد هاجر يعقوب واولاده الى مصر، وهناك تكاثروا وشكلوا مع خليط آخر من الناس طبقة فقيرة مستعبدة كانت تدعى « العبرانيين » . وكانوا يشعرون انهم اجانب بين المصريين كما كان المصريون انفسهم يشعرون بان العبرانيين اجانب عنهم ، بل تذكر التوراة ان المصريين « لا يقدرون ان يأكلوا طعاماً مع العبرانيين لانه رجس عند المصريين »، (تكوين ٣٢/٤٣) . ثم خرجوا من مصر حوالي سنة ١٣٠٠ ق. م. أو قبلها بقيادة موسى في جماعات لا ينظمها ضابط ولا رابط . وبعد ان تاهوا في صحراء سيناء مدة اربعين سنة حاول موسى ان يدخل بهم فلسطين من الجنوب ، فخافوا بأس الكنعانيين فاتجه بهم الى شرقي الاردن . وهنا قاومه سكانها العموريون والآدوميون العرب (في نواحي الكرك) ، فاضطر هو ومن معه الى سلوك طريق طويلة ، الى خليج العقبة ومنها الى جهات معان متبعين طريق الصحراء ، ومنها الى مادبا . وقيل ان موسى قضى نحبه هناك فقاد العبرانيين بعده يشوع بن نون فغزا هذا فيما يبدو فلسطين* من اريحا. وكان ذلك في نحو ١٢٦٠ق. م.

اليهود ** الذين غزوا القدس – العبيرو

ليس اليهود موجة من جزيرة العرب مثل موجة الكنعانيين . وليسوا جنساً او عرقاً صافياً من الأجناس السامية (العربية) أو الهندية الأوروبية،

* لم يكن اسمها فلسطين آنئذ ، وانما « ارض كنعان ». وكانت ارض كنعان اوسع من فلسطين بحدودها الحديثة ، اذ كانت تشمل اجزاء من سورية ولبنان وشرقي الاردن . ولكن حدود ارض كنعان لم تكن معلومة تماماً ولا مرسومة ، كما هو الحال في الحدود الحديثة .

** أطلقت كلمة «يهودي» على العبراني (أو الاسرائيلي) الذي كان تابعاً لمملكة «يهوذا» في القدس.

او غيرهما، والمهم باجماع آراء المؤرخين والاثريين المحدثين «خليط متنوع جداً» من الناس . وقد تكون هـذا الخليط من العبرانيين القادمين من مصر ، الذين كانوا أيضاً خليطاً من البشر ، مع فئات من طبقة مماثلة لهم تسمى « العبيرو » نشأت في الهلال الخصيب نشأة غريبة خـلال فترة طويلة (ما بين ٢٠٠٠ و ١٠٠٠ ق.م.). وأكثر العلماء الآن يعتقدون أن لا فرق بين العبرانيين والعبيرو. وهم يبدأون بابراهيم فيصنفونه وجماعته مع جماعات العبيرو، ولكن لا ينسبون اليه الديانة اليهودية التي ظهرت بنبوة موسى .

وقد قال برايت الاميركي ونوث الالماني ، وكلاهما من مؤرخي اسرائيل ، كما قالت الدكتورة كنيون البريطانية * ، وصاحبة التنقيبات الأثرية في أريحا والقدس، أن العبيرو جماعات لا تنسب الى عرق واحد ، لأنه لم يكن لأفرادها اسماء خاصة تدل عليهم ، ولم يكونوا يحترفون حرفة معينة ، فهم أحياناً جنود مرتزقة محترفون، وأحياناً عمال عاديون ، وأحياناً عبيد مستخدمون. والصفة الوحيدة المشتركة بينهم انهم كانوا « أجانب » عن البـلاد ، غرباء ، دون أصول معروفة ودون جذور في الارض . وكانوا هم يقولون عن أنفسهم إنهم غرباء ، كما كان يخاطبهم الناس على أنهم كذلك . وأنسب ما كان يطلق عليهم أنهم عصابات مغامرة وجنود تسعى وراء الرزق، يظهرون في الاماكن المضطربة غزاة للمدن غير المحصنة ، ويتجندون كمرتزقة في جيوش الدول القوية . ومثل هـذه الجماعات كان يمكن أن يتجند من مصادر متنوعة : من الأشخاص الذين لا مأوى لهم ، ومن العصابات المغامرة التي تفتش عن أراض غنية تغزوها . ولذلك تكون ذات أصل مختلط . كانوا يتألفون من حوريين وحثيين وآسيويين من وراء الجبال والانهر التي تحيط بالهلال الخصيب، كما كان يلجأ اليهم جماعات من البدو المعوزين أو الخارجين على مجتمعاتهم في الهـلال الخصيب وجزيرة العرب .

وتصدق صفات العبيرو على الذين اجتمعوا مقاتلين مع داود . فالتوراة

* Kenyon, Achaeology in the Holy Land, Benn Ltd. , Gordon, 1970, P. 183 - 4.

تقول في العدد ١ من الاصحاح ٢٢ من سفر صموئيل الاول : « فذهب داود.. واجتمع اليه كل رجل متضايق، وكل من كان عليه دين، وكل رجل مرّ النفس، فكان عليهم رئيساً . وكان معه نحو أربعمائة رجل ». ولا يتردد برايت ، على شدة تعصبه للاسرائيليين ، في أن يقول : « عاش داود بعض الوقت حياة انتهازي ، كزعيم عصابة من العبيرو » ، (ص ١٧٢ – ١٧٣) .

فاليهود ليسوا في الأصل جنساً سامياً أو عربياً ، وانما نشأوا خليطاً صفته التجول والبحث عن رزق وارض. وقد طوح بهم الحرمان فسخروا تخصصهم في الحروب لغزو مدن الكنعانيين في فلسطين وأمعنوا في القتل والحرق والتشنيع ثم الاستيلاء على الارض واخراج اهلها منها قوة واقتدارا.

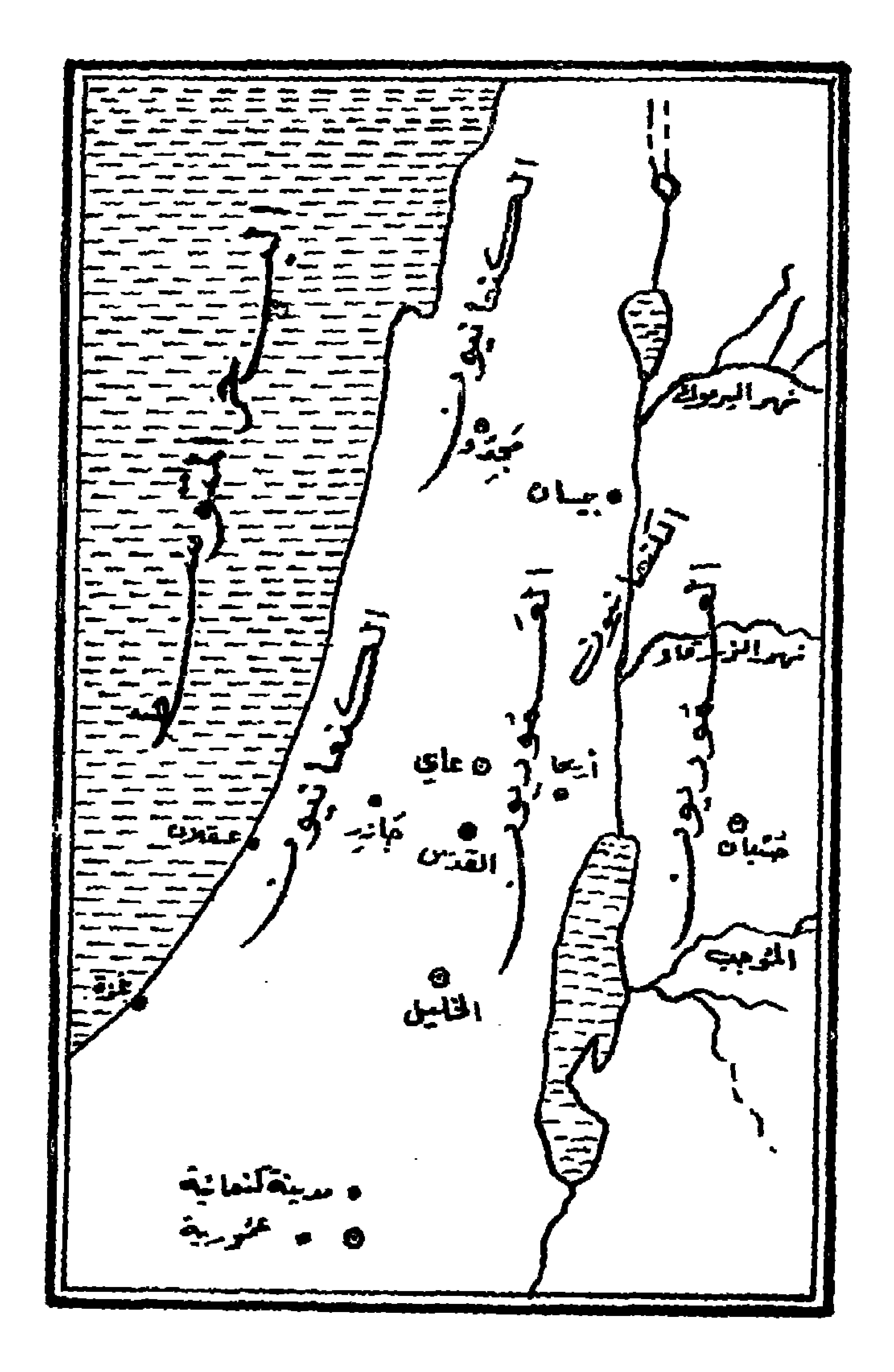
وقد دُوّن هـذا في التوراة وتوارثته الاجيال اليهودية كابرا عن كابر ، وعملت به الصهيونية في فلسطين ، تأثرا بتوراة اليهود وكتبهم الاخرى وأحداث تاريخهم .

ومع ان هذه النظرية في اصل اليهود مرجّحة فان مما يقربها الى التأكيد، اضافة الى الوثائق الاثرية ، سلوك جماعاتها (العبيرو) سلوكا ينسجم مع ما ذكرت الوثائق عنهم من الاخذ باسباب الحروب ، ومناوأة السكان جميعاًلهم، اذ ان السكان عامة لم يستقبلوهم استقبالهم للمهاجرين العاديين الراغبين في السكن والعيش ، وانما استقبالهم لجماعات غازية تخشى سطوتها وتدميرها وسلبها للارزاق والممتلكات .

وبحكم ما تعرض له العبرانيون من التنقل والحرمان ، دون عصبية ودون وطن ثابت أو ارتباط بارض ، فقد الحقوا نسبهم بابراهيم بصفته عبرانيا كما تقول التوراة ، او عبيرو . وقد التف العبرانيون حول اثنتي عشرة قبيلة (الاسباط) وادعوا أن ربهم « يَهْوَه » وعدهم بالارض،وهي دعوى حرروها في التوراة باقلامهم وجاءت بمتناقضات واغلاط تاريخية لا مجال لسردها هنا،

وحسبنا منها أنهم كانوا يعتبرون يهوه إلها خاصا بهم، وانهم « شعبه المختار».
والحقيقة اننا نخطىء كثيراً اذا لم نلاحظ ان اسرائيل الصهيونية الحالية انما هي «دولة عبيرو» ، فالاصل اجنبي غريب، والجسم «خليط متنوع جدا» والحرب عدوان وحشي فيه خصائص الاحتراف، كالحرب التي خاضها يشوع، والقتل قتل، واغتصاب الارض اغتصاب. بل ان من زعماء الصهيونية الحاليين مثل اليعازر ليڤنه من يعتقد أن « اسرائيل الان هي في وقت يضاهي وقت يشوع » . وعلى العرب ان يتدبروا بعمق شديد هذا التفكير الصهيوني الذي يرتبط عضوياً بالتفكير الاستعماري الامبريالي .
مما سبق نرى انه لم تكن للاسرائيليين أية علاقة بنشوء القدس أو تطورها . فالقدس نشأت سنة ٤٠٠٠ ق.م. واليهود دخلوا اليها حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م.
وقد كان اليهود انفسهم يشعرون بانهم غرباء عن القدس نفسها كذلك . وتصف التوراة شعورهم هذا في مواضع كثيرة ، منها قصة قصيرة طريفة في سفر القضاة (١٩/١١). ففي نحو سنة ١١٥٠ ق.م. ، حين كان بعض الاسرائيليين قد دخلوا الى فلسطين بقيادة يشوع ، ولكنهم لم يكونوا بعد قد دخلوا الى القدس ، كان رجل اسرائيلي وامرأته وغلامه الاسرائيلي ايضاً مسافرين ذات يوم ، فادركهما الليل . وهنا تقول التوراة بالحرف : « وفيما هم عند يبوس [القدس] والنهار قد انحدر جداً قال الغلام لسيده تعال نميل الى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها ، فقال له سيده لا نميل الى مدينة « **غريبة** » لا أحد فيها من بني اسرائيل » .
وكان قد مضى على وجود المدينة اليبوسية ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة قبل هذه القصة ؛ وهذا اذا استثنينا امكان وجود العرب في نواحي القدس قبل ذلك بآلاف اخرى من السنين .

* ان الخطأ هو التعلق بافكار عتيقة لا يحتملها التطور الحضاري . وليس الخطأ خطأ «الشعب» اليهودي، بل خطأ الصهيونية العنصرية النازية الغازية، التي تنسج على منوال «تراث» مضت عليه آلاف السنين .



سكان فلسطين

قبيل الغزو العبراني الذي تم حوالي سنة ١٢٦٠ ق. م.

وفي نحو سنة ١٢٦٠ ق.م. ، كما اسلفنا ، وبعد وفاة موسى ، قاد يشوع بن نون جماعات من العبيرو *، لغزو البلدان الكنعانية .

وكانت القدس يومئذ تحت النفوذ المصري . وكان حاكمها (عبد حيبا) قد استنجد كما قلنا بفرعون مصر قبل وصول يشوع قائلاً له : « ان المنطقة كلها مهددة بالضياع من جراء هجمات العبيرو » ، وطلب منه نجدة ، ولكن فرعون شُغِل عن طلبه ولم ينهض لنجدته .

وحاصر يشوع أريحا فدك أسوارها ، وتقدم فأحرقها ودمرها وقتل جميع من فيها من شيوخ وأطفال ونساء ورجال ، وذلك ، بنص التوراة ، بناء على ايعاز من موسى قبل وفاته واستناداً الى مشيئة الرب « يهوه » . وتقول الدكتورة كنيون ان عدد من دخل من العبرانيين مع يشوع كان قليلاً ، وان التسلل الحربي للمدينة دام مدة من الزمن .

وقد أشارت التوراة أيضاً الى مقاومة السكان العرب من العموريين والكنعانيين واليبوسيين.. الخ غزوة أريحا، فقالت موجهة الكلام للعبرانيين: « ثم عبرتم الأردن الى أريحا فحاربكم أصحاب أريحا الأموريون والكنعانيون والحثيون والجرجاشيون والحويون واليبوسيون . »

ثم خلّف يشوع اريحا وراءه وصعد الى عاي (خربة التل الآن) بجوار رام‌الله ، فدمرها أيضاً ، ثم زحف الى القدس فقاومه أهلها مقاومة عنيدة ، فاستعصت عليه ، ومات قبل أن يدخلها .

ووصف المؤرخ برستد مقاومة القدس لعدوان العبرانيين فقال : « وحين دخل العبرانيون فلسطين وجدوا فيها الكنعانيين يقيمون في مدن زاهرة تطوقها الأسوار الضخمة ، فلم يستطيعوا أن يفتحوا منها الا المدن الضعيفة.. حتى أورشليم هزئت بحملات مهاجميها العبرانيين بضعة قرون .** »

* Kenyen, Digging up Jericho, Benn Ltd. ,London 1957, pp. 258 - 9.

** جيمس هنري برستد ، العصور القديمة ، ترجمة داود قربان ، المطبعة الاميركية ، بيروت ١٩٢٦ ، ص ١٥٥ .

وتشير التوراة نفسها الى مقاومة أهل القدس لغزوة العبرانيين واصرارهم على البقاء في بلدهم وأن اليبوسيين سكان أورشليم ظلوا في أورشليم الى يومنا هذا ، فتقول : « وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان اورشليم فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في اورشليم الى هذا اليوم » ، (قضاة ١/٢١) . ولم يكن بنو بنيامين قادرين على « طرد » اليبوسيين ، كما يفهم صراحة من نصوص التوراة .

وبالمناسبة فإن اليبوسيين لم يكونوا الشعب الوحيد الذي صمد في القدس وما حولها ، بل ان الكنعانيين وغيرهم ، والفلسطينيين معهم ، قاوموا الغزوة العبرية وظلوا مقيمين في مختلف انحاء فلسطين (قضاة ١/٢٧ — ٣٥) .

وبعد أن عجز يشوع عن فتح القدس ، استمر في غزو بعض المدن الكنعانية الضعيفة . وقد نجح في غزوته تلك على الرغم من المقاومة الباسلة والصمود العنيد . وساعد على ذلك ما يلي :

(١) تفكك النظام السياسي في البلاد الفلسطينية (الكنعانية) آنئذ ، اذ أنها كانت ممالك مدن مستقل بعضها عن بعض ولا تكوّن دولة متحدة .

(٢) ضعف سيطرة مصر وتغاضيها عن دعم نفوذها في البلاد على الرغم من أن حاكم القدس وغيره استنجدوا بها .

(٣) تخصص جنود يشوع ومقاتليه (العبيرو) في ضروب الحرب والقتال ، واندفاعهم العنيف وراء الرزق والارض .

ومع ذلك فلم تخضع البلاد كلها ليشوع ومن جاء بعده ، بل بقي الساحل جميعه من عكا الى سيناء ، كما بقيت سهول عكا وبيسان وشمال يافا وغيرها ، في ايدي اهلها وفي ايدي الفلسطينيين . وباختصار بقي معظم البلاد ، وبخاصة السواحل والسهول والاراضي الخصبة ، في ايدي اصحابها ، سكانا وحكومات.

وكان يشوع يغتصب الاراضي من مالكيها بحد السيف أو يطردهم منها

ثم يوزعها ، فيا تذكر التوراة ، على الغازين العبرانيــــين . واذا طالعت الاصحاح الثالث عشر من سفر يشوع في التوراة امكنك ان تعرف الاراضي التي قيل انها اغتصبت ووزعت . وكان عدد الاسرائيليين قليلا ازاء عدد أهل البلاد ، وكانت الاراضي التي اغتصبوها قليـلة ، ولذا قالت التوراة « بقيت ارض كثيرة جداً للامتلاك » .

وقد درج الاسرائيليون على وسائل النهب والاغتصاب وطرد السكان من اراضيهم منذ فترة اوضاعهم العبرية. ومن الغريب ان تصبح هذه الوسائل بعدئذ في تراثهم امراً دينياً من ربهم . فحـــول النهب والاغتصاب يخاطب الرب قوم اسرائيل كله ويقول له اني سأسوقك « الى مدن عظيمة جديدة لم تبنها وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها وآبار محفورة لم تحفرها ، وكروم زيتون لم تغرسها . . . وأكلت وشبعت » الخ . . ، (تثنية ٦/١٠ ١٢) .

وحول «طرد» السكان يقول الرب لاسرائيل: « إلهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك قليلا قليلا. لا تستطيع ان تفنيهم لئلا تكثر عليهم وحوش البرية» ، (تثنية ٧/٢٢) .

فتح اليهود للقـــدس

وبعد يشوع جاء شاول ثم داود الذي اصبح بعــده ملـكا ، فقلّد بذلك اسلوب الحـكم الكنعاني . واستقر في الخليل مدة ظل خلالهـا يفكر في غزو القدس . ثم دبر حملة عليها حوالي سنة ٩٨٠ ق. م. فقاومه اليبوسيون ايضاً مقاومة عنيدة ، ولكنه اقام على حصارها زمناً ثم عمــــد فيا يقال الى حيلة فدخل اليها من النفق اليبوسي الذي كانت تمر فيه الميـــاه من عين جيحون خارج السور الى بركة سلوان داخله . واقام داود في أول الامر هو وأهل بيته وحاشيته دون غيرهم من اتباعه اليهود . وظل عدد اليهود في القــدس قليلا ازاء عدد سكانها من اليبوسيين .

ولم يؤثر فتح داود للقدس رغم اهميته على تصميم الكنعانين على البقاء في البلاد من دان في الشمال ، التي كانت بلدة عمورية ، الى حبرون (الخليل) في الجنوب ، وكانت عمورية ايضاً. واسم (حبرون) عموري كذلك. امابير السبع وسائر النقب وسيناء فمناطق «لم يقطنها اليهود عبر التاريخ» . « وسكن بنو اسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والاموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين [وليس العكس] ونسوا الرب الههم وعبدوا البعليم » وآلهة الكنعانيين (قضاة ٣/٥-٧) . والبعليم جمع بعل ، اله الكنعانيين . اما سبب عبادتهم البعليم فهو ارتدادهم عن عبادة يهوه ، كما فعلوا ايام موسى في سيناء حين عبدوا العجل الذهبي .

والواقع ان موقف السكان كان دائماً مقاومة الغزوة العبرانية . ولذلك فعلى الرغم من استيلاء داود وسليمان من بعده على مدن كنعانية عديدة ، فان السكان ظلوا بعيدين عن الاختلاط بالغزاة القادمين ولم يبدوا لهم اي مظهر من مظاهر الخضوع ، اللهم الا دفع الجزية حين تشتد عليهم القوة. بل جاء الامر معكوساً في بعض الاحوال ، فان احد اسباط (قبائل) اسرائيل كان يدفع الجزية للكنعانيين « وكتفه محنية » ، على حد تعبير التوراة ، (تكوين ٤٩/١٦ وقضاة ١/٢٣) .

وعندما افتتح داود القدس كان قد مر على نشوئها نحو ثلاثة آلاف سنة ، كما كان قد مر على وجود العموريين والكنعانيين في فلسطين ما يزيد على أربعة آلاف سنة ، وعلى وجود كنعانيين وغيرهم من القبائل العربية التي خرجت من جزيرة العرب نحو خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة ، وهذا اذا لم نأخذ باستنباط اولبرايت واقرانه الذين يرون أن « العنصر السامي [العربي] بقي العنصر الاساسي في التركيب الجنسي لفلسطين منذ ذلك الوقت [عشرة الاف سنة] الى الان » ، (ص ١٧ سابقاً) .

٨

مملكة داود وسليمان

في القـــدس

كان داود فيما يبدو قائداً أكثر مما كان حاكماً. ولا غرو في ذلك، فهو راع تحول الى محارب. وتصفه التوراة كما تصف جماعته التي قاتل بها أوصافاً تنطبق على جماعات العبيرو، كما سلف. وقد حل في الخليل أولاً ثم غزا القدس فقاومه اليبوسيون مقاومة شديدة، ولكنه تغلب عليهم في النهاية، وحكم القدس دون أن يضيف اليها شيئاً يذكر. وكان في الحقيقة خاضعاً للحكام المصريين، وان كان قد وسع الرقعة الفلسطينية التي بدأ يمد نفوذه اليها. ومع ذلك فلم تخضع له كافة البلاد، وبخاصة السهول والسواحل.

وانتقل الحكم في القدس بعد داود الى ابنه سليمان. وكان حكمه أفضل فيما يبدو من حكم أبيه، لكنه مع ذلك كان مبنياً على ارهاق الشعب وجمع الضرائب لبناء قصره أو قصوره والهيكل المشهور.

ومع أن بعض المراجع الاجنبية تشير الى أن حكمه امتد الى جهات العقبة وسيناء وسورية، فمن الممكن أنه امتد «من دان الى بير السبع» على حسب القول المشهور عند اليهود. وعلى كل حال فانه لم يسيطر على فلسطين كلها، ولا كان اليهود فيها اكثرية بل ظل عددهم ضئيلاً نسبياً، وان كانت التوراة تورد ارقاماً ضخمة في مناسبات مختلفة لأعداد اليهود وغير اليهود لا يمكن أن يكون لها نصيب من الصحة. وقد كان حكم سليمان أيضاً خاضعاً لنفوذ المصريين، والفنيقيين في لبنان. ورُوي عن سليمان أنه كان حكيماً وأن ملكه ازدهر من النواحي الأدبية والعلمية والفلسفية. ولكن المرء يجب أن يأخذ مثل هذه

الأقوال بالروية ، لان الحكم الذي لم يدم أكثر من اربعين سنة لا يمكن أن يكون قد بلغ شأواً بعيداً في الحضارة بعد أن يكون قد بدأ من بداوة داود ويشوع ومن دخل فلسطين معهما من العبيرو الذين وصفنا . وان « نشيد الانشاد » الذي لسليمان في التوراة وغيره من الآثار الشعرية والقصصية كتب بعد سليمان ، واقتبس كثير منه عن الآداب الكنعانية . وقد كتبت التوراة في أزمنة متطاولة وبأيدي كتبة عديدين ، ولم تتخذ شكلها النهائي الا قبل الميلاد بنحو ٥٠٠ سنة ، أو بعد ذلك ، أي بعد نحو ثمانية قرون من عهد موسى.

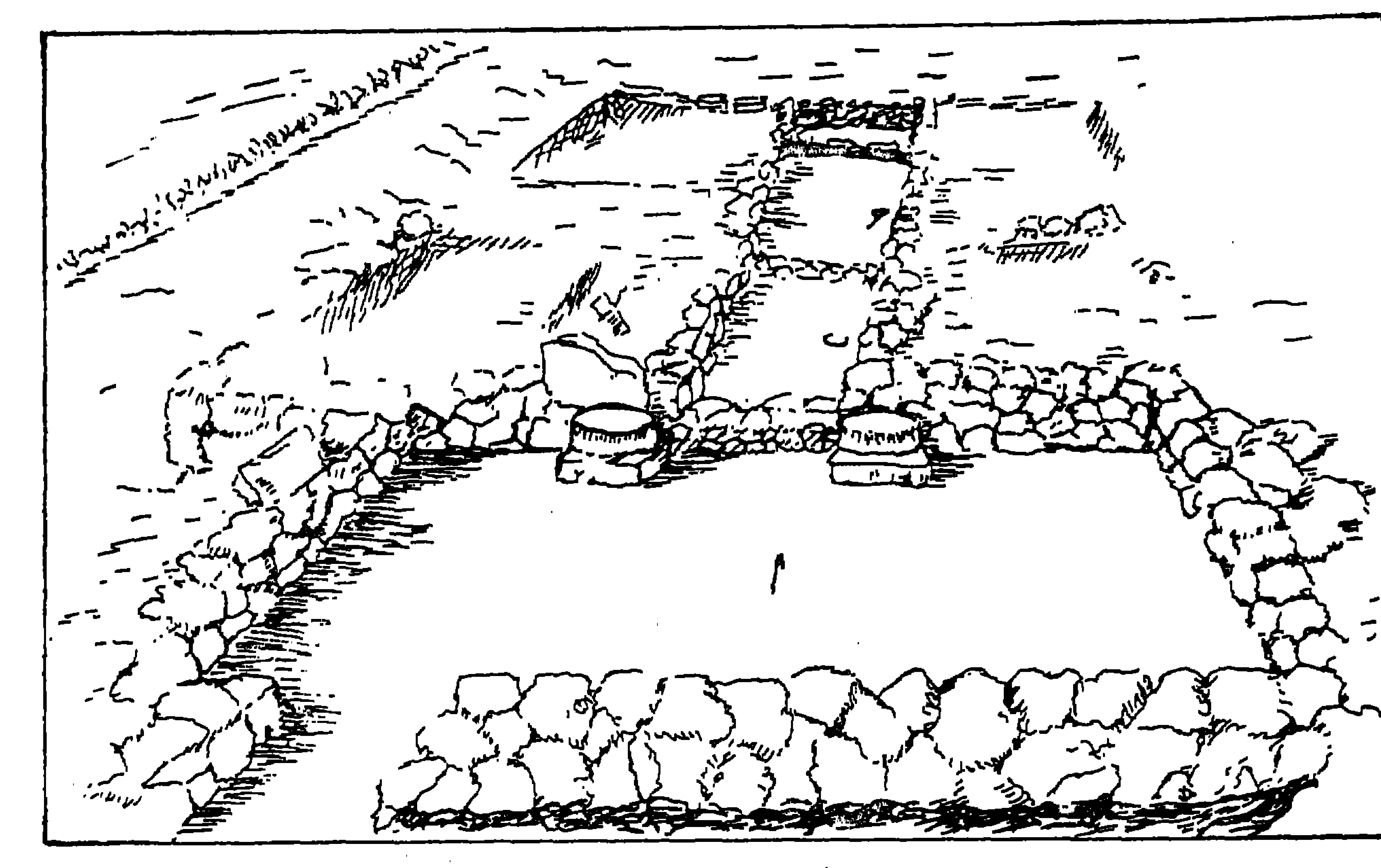
وقد دلت الحفريات الأثرية التي تمت مؤخراً في مدينة اوغاريت الكنعانية في سورية على مشابهات بين أفكار الأدب الكنعاني وبعض أسفار التوراة التي جاءت بعد ذلك . والاوزان الشعرية والتراكيب الادبية في المزامير العبرية مقتبسة من الأدب الكنعاني. وقد قال المؤرخ المشهور فيليب حتي : « ان الكثير من خير ما تركه التراث الادبي الكنعاني اقتبسه العبرانيون ودخل في كتاباتهم المقدسة. وينطبق هذا خاصة على القطع الغنائية والحكم التي استعارها سفر الامثال والمزامير ونشيد الانشاد ، وعلى الاخبار الخرافية التي دخلت سفر التكوين وفي قصص الانبياء . ولم يكن هذا الامر معروفاً الى أن اكتشفت مدينة اوغاريت* . »

ويقول جون برايت مؤلف كتاب « تاريخ اسرائيل » وغيره من العلماء انه لم يدخل الى القدس عدد كبير من اليهود عندما افتتحها داود . ولكنه لا يحدد العدد .

ومن الواضح أن اليهود الذين سكنوا القدس أيام داود وسليمان كانوا قليلي العدد ، لان اليبوسيين لم يغادروا مدينتهم ، ولان المدينة لم تتوسع الا بقدر زهيد زمن سليمان لحساب قصره أو قصوره والهيكل الذي بناه . وتتحدث التوراة في أكثر من موقع عن غزارة عدد الكنعانيين .

---

* فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة حداد ورافق ، مراجعة جبور ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ١٢٤ .



هيكل كنعاني من الداخل

ا الساحة ب القدس حـ قدس الاقداس

على نمطه بنى سليمان هيكله . وقد بناه له الفنيقيون والكنعانيون العرب .

ولم يشمل ملك داود وسليمان جميع انحاء فلسطين ، التي كان يقدر عدد سكانها من اليبوسيين والكنعانيين والعموريين وغيرهم بنحو ربع مليون نسمة . وبزوال حكم داود وسليمان زالت عن مدينة القدس سيادة الاسرائيليين * في شكل المملكة الواحدة التي لم تدم اكثر من سبعين سنة . والواقع ان هذه السيادة لم تكن كاملة بل كان النفوذان المصري والفنيقي ينتقصانها من سائر اطرافها ، كما قدمنا ، ولا كانت حدود اطرافها واضحة .

هيكل سليمان

كان اليبوسيون ، على عادة الكنعانيين ، قد بنوا في يبوس (القدس) معابد كما بنوا بيتاً كبيراً للاله شالم على مكان مرتفع في المدينة . وكانت عادة الكنعانيين ان يتباروا في بناء بيوت لإلههم الاكبر بعل في كل مدينة ملكية ، لان العبادة عندهم كان يجب ان تتم في مكان محدد لا في مكان يختاره المتعبد . وكان المكان المرتفع يشير الى صلة الإله او بيته بالسماوات العلى التي كانوا يعتقدون أنه ينطلق فيها ، (انظر الصفحة المقابلة) .

وقد حاول داود أن يقتبس طريقة اليبوسيين ففكر في بناء بيت (هيكل) للرب ، على مرتفع أيضاً وعلى الطريقة الكنعانية . وكان الموضع الذي اختاره بيدر أرنان اليبوسي في المدينة . وكانت الغاية من ذلك أن يضع فيه تابوت العهد

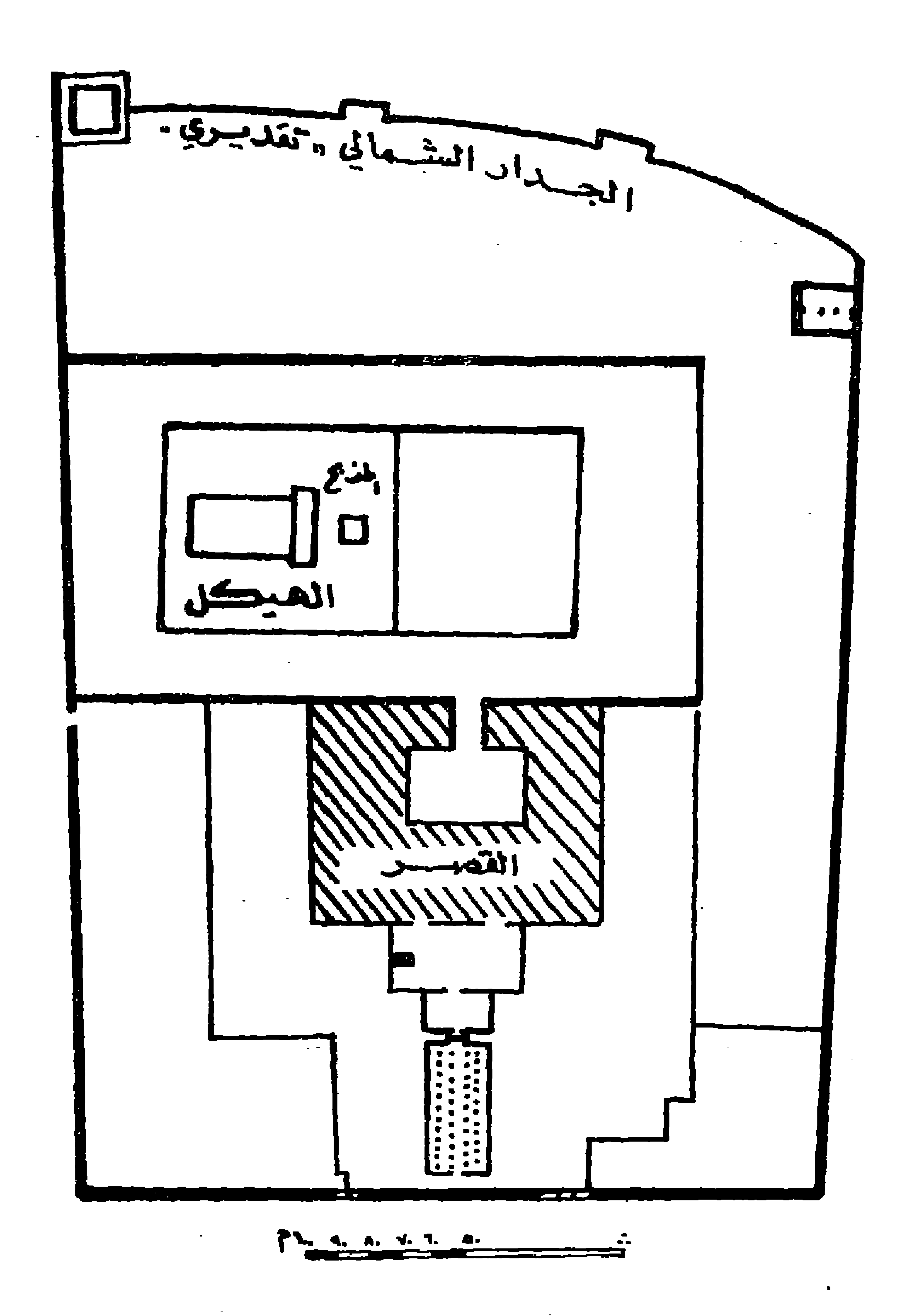
* تذكر التوراة أن عدد اليهود سنة ٣٥٨ ق. م. كان نحو ثلاثة ارباع المليون ، ولكن الدراسات الاثرية والعلمية وقدرة البلاد في تلك الازمنة على الاستيعاب تحملنا على التأكيد بأن العدد مبالغ فيه . وفيما يتعلق برقعة ملك داود وسليمان نجد في المصادر المختلفة أوصافاً متباينة وخرائط متناقضة . ومن المعلوم انه لم تكن يومئذ (٩٥٠ ق. م.) حدود وتخوم جغرافية وخرائط . فاذا اخذنا بابحاث الثقات المحايدين بدا أن أوسع امتداد ممكن لنفوذ سليمان كان « من دان الى بير السبع » (الملوك الاول ٤/٣٥) ، حيث كانت تنتشر القبائل اليهودية بين فئات السكان الكنعانيين ، وذلك دون أن تتبع لسليمان تبعية نظامية ، كالتي نعهدها الان ، كل جهات فلسطين ، ودون أن يكون لليهود اكثرية فيها . ولم يبن اليهود في مملكة القدس وقسميها اللذين نشأا بعد زوالها اية مدينة جديدة ، اللهم الا السامرة ، في قول بعض المراجع ، وان كانوا قد أنشئوا بعض القرى .

الذي كان يضم الكلمات العشر التي نزلت على موسى. وكان هذا التابوت قبل ذلك الوقت يحفظ في خيمة، تسمى خيمة الاجتماع، أي اجتماع الناس للعبادة.

ولكن الإله، كما تقول التوراة، لم يمكنه من ذلك لأنه أراق دماء كثيرة في حروبه، ولأنه اغتصب البيدر من اليبوسي اغتصاباً. والواقع أنه وجد مقاومة شديدة من اليهود أنفسهم، لانهم رأوا أن بناء بيت للرب يحصره في مكان واحد، في حين ان وجوده في خيمة متحركة ينقله الى كل مكان ينتقل اليه الاسرائيليون، ويحميهم. وابلغ ناتان أحد أنبياء اليهود داود ان ارادة ربهم هي ان لا يبني هيكلاً. وانصاع داود لذلك فبقي التابوت في الخيمة بقية حياته.

وقام سليمان بعدئذ بالمهمة فبنى الهيكل المشهور على الرغم من معارضة أحبار اليهود و«أنبيائهم». وقد بناه على مرتفع، كاليبوسيين، وعلى طراز كنعاني، شأن أمثاله من الهياكل التي وجدت آثارها في المدن الكنعانية مثل بيسان (بيت شان) وهازور ولخيش. وقد بناه المعماريون الفنيقيون. وجاءت التوراة على وصف الخيمة والهيكل. ويتألف الهيكل من « ساحة » لها مساحة غرفة عادية، مكشوفة او مسقوفة، وهي مكان اجتماع الناس للعبادة، تفضي الى قاعة أصغر من الساحة تسمى « القُدُس »، وهذه تفضي بدورها الى غرفة صغيرة هي « قُدُس الأقداس »، على نسق هيكل بيسان الكنعاني بالضبط. وفي هذه الاخيرة كان يوضع تابوت العهد. وكان للهيكل مذبح يقام أمامه وتقدم عليه الضحايا. والحقيقة أن هيكل سليمان قد دمّر ولم يبق له أي أثر على الاطلاق، ولكن نصوص التوراة وتقدير الأثريين تصوره على هذا الشكل الذي وصفنا. وذكرت التوراة أن طول الهيكل ستون ذراعاً (عبرية) وعرضه عشرون، أي ٢٥ × ٨ امتار بمقاييسنا الحاضرة.

وتقول التوراة، كما تجمع المصادر التاريخية، على ان سليمان اقام قصراً أو قصوراً ملكية له ولبعض نسائه، وسخر لذلك العمال تسخير العبيد، وفرض الضرائب



الهيكل

هيكل سليمان من الخارج وبجواره « المذبح » . وقد بني الى جوار « القصر » الخاص بالملك .

الباهظة على الشعب ، فأدى ذلك الى التذمر الشديد من حكمه . وقد تزوج نساء عديدات «أجنبيات»، واذن لبعضهن باحضار معبوداتهن الوثنية الى القصور والهيكل ، فأثر ذلك في ديانة المجتمع اليهودي، فارتدّ اليهود عن عبادة رب العالمين الى الههم الخاص بهم وبقبائلهم ،بل عبدوا آلهة متعددة وأوثاناً، فتمزقت بذلك وحدتهم وأدى هذا فيما أدى الى أنقسام مملكة الاسرائيليين في القدس.

مملكة يهوذا في القدس

وبعد موت سليمان استشرى الفساد والانهيار في مملكته ، وكانت عوامل هذا الفساد قد ابتدأت في حكمه ، بل في حكم داود من قبله .

لذلك لم يكن غريباً أن تتجزأ تلك المملكة وتنحسر الى مقاطعات محدودة حول القدس وحول السامرة ، بجوار نابلس .

وكانت عوامل ذلك ما يلي :

(١) الخلافات الداخلية ، المستمرة بين أسباط اليهود ، وجور الحكم وتسلطه .

(٢) تزايد نفوذ مصر في البلاد الى حد احتل معه الفرعون شيشنق القدس بعد موت سليمان بسنوات قليلة .

(٣) المقاومة المستمرة التي لم يتوقف أهل البلاد عنها . ولذا فلم تمض إلا خمسون سنة تقريباً على موت سليمان حتى استعاد اليبوسيون أنفسهم حكمهم في القدس سنة ٨٩٥ ق. م. واستولوا على خزائنها وعادوا الى حكمها فترة من الزمن .

واستمر الخلاف بين أسباط اليهود ، ثم تركز حول « مملكة اسرائيل »

في السامرة ، و« مملكة يهوذا » في القدس . وقد تحول نفوذ كل من هاتين المملكتين الى ما يشبه نفوذ ممالك المدن الكنعانيـة . ولم تكن مملكة يهوذا تزيد على بضعة مئات الكيلو مترات المربعة حول مدينة القدس . ولم يكن لمملكة القدس أو لمملكة السامرة أي سلطان على الاجزاء الباقية من فلسطين. وفي سنة ٧٢٢ ق. م. أنهى سرجون الثاني الآشوري حكم اليهود المتهاوي في السامرة وسبى اليهود الى آشور في العراق . وفي سنة ٨٥٦ ق. م. أنهى نبوخذ نصر الكلداني نفوذهم في القدس، وذلك على أثر تمرد اليهود على سلطاته، فحاصر المدينة وحرق الهيكل ودمر المعالم اليهودية فيها وأمر اليهود الى بابل في العـــراق .

وفي أثناء اقامة اليهود هناك فكروا ملياً في شؤون ديانتهم ، وأخـذ كبارهم هناك ينتهون لأول مرة الى عقيدة التوحيد الصافية التي لم يبلغوها من قبل ، كما ان هذه العقيدة هي التي ضمنوهـا التوراة التي جمعوا فيها كتابات اسلافهم واقوالهم . ولم يتم هذا الجمع بأكمله الا بعد التاريخ المسيحي .

وفي تأثير السبي على اليهود قال المؤرخ العالمي الأديب هـ. ج. ويلز :

« ان الحقيقة البسيطة هي ان اليهود ذهبوا الى بابل بربريين وعادوا منها متحضرين. .. في بابل جمع اليهود تاريخهم وكونوا تراثهم ...وقد كان الشعب الذي عاد الى القدس بإذن من الملك الفـارسي قورش مختلفاً جداً في العـلم والروح عن الشعب الذي ذهب في السبي . لقد تعلم الحضارة . »

وعندما أعاد قورش اليهود المسبيين الى القدس عارض السكان العرب ذلك كل معارضة ، كما عارضوا محاولة اليهود بناء أي جزء من السور أو ترميمه ؛ ونجحوا في ذلك ، فتوقف العمل في ترميم اليهود للسور الذي كان يعتبره السكان العرب ملكاً لهم ، كما اعاقوا اعادة بناء الهيكل مـدة عشرين سنة. هذا وقد بقي عدد كبير من أغنياء اليهود في العراق مفضلين البقاء هناك على العودة الى القدس .

٩

تعاقب الحكام في القدس

عبر التاريخ

بعد زوال الغزوة العبرانية الاسرائيلية عن القدس ، حكم الاشوريون والبابليون البلاد فترات متعاقبة ، مـع استمرار شيء من النفوذ المصري . وقد كانت القدس وفلسطين في الواقع ممراً لجيوش هذه الدول يمتد اليها حكم احداها حين يتقلص الآخر . كانت آشور وبابل تمتد بتجارتها وسلطانهـا نحو القدس الى الغرب ، كما كانت مصر تمتد بتجارتها وسلطانها نحوها الى الشرق . ولم تكن غاية هذه الدول اخضاع سكان البلاد أو الاستيلاء على اراضيهم ، لأنها كانت مستقرة في اراض خصبة واسـعة . بل كان القصد تأمين طـــرق المواصلات وما يتبع هذا من التجارة والكسب . ولذلك كانت قاعدتها ان تنتدب من أهل البلاد من يحكمها باسمها ويضمن لها هــذه الغاية . وهنالك ما يشير الى انها كانت واعية الى اواصر القربى بينها وبين سكان القدس وفلسطين الاصليين. ومن هنا كانت معاملتها في كثير من الاحيان تتسم بالرفق واللين .

ثم غزا الفرس القدس سنة ٥٣٩ ق.م. ، واستمر زحفهم في هذا الغزو الى مصر . وقد اعاد قورش ملك الفرس اليهود من العراق الى القدس ، كما اشرنا ، واحسن اليهم في سبيل أن يساعدوه على غزو مصر . وقد تم ذلك ، وقال عنه بعض المؤرخين انه « أول وعد بلفور في التاريخ » .

ثم غزا اليونان المدينة سنة ٣٣٢ ق.م. وقـد حاول الاسكندر في اثناء

الحكم اليوناني أن يجعل القدس وفلسطين يونانية، لكنه لم يفلح ، وظلت البلاد على طبيعتها الكنعانية في اللغة والعادات والديانة وغيرها . وفي زمن الحكم اليوناني ثار مكابيوس احد زعماء اليهود على اليونانيين وعلى العموريين الذين كانوا قد استعادوا الحكم زمناً في القدس. واقام مكابيوس في المدينة سنة ١٦٥ ق.م. حكماً ذاتياً متسماً بالحرية الدينية التي ثار على اليونان من أجلها . واتصف هذا الحكم مع ذلك بالتفسخ والتدابر والاقتتال والانصراف عن عبادة يهوه. وبعد نحو مائة سنة من هذه التجربة اجهز عليها القائد الروماني بومبى .

ثم غزا الرومان المدينة سنة ٦٣ ق.م. وفي اثناء حكمهم لها ظهر السيد المسيح بدعوته فساعده الحكم الروماني على نشر الدعوة ، ولكن اليهود قاوموه مقاومة عنيفة واتهموه و كفروه، ثم ألبوا الناس عليه، حتى أدى ذلك الى محاكمته والحكم عليه بالموت ، مع أنه جاء برسالة سمحة هي استمرار للرسالة السماوية وتكريس للأخلاق المثالية .

أما سكان القدس الكنعانيون وغيرهم من الشعوب العربية فمنهم من آمن بالمسيح ونصره وايده ومنهم من اعرض عنه . ومع ان بعض فئات السكان جادلت عن ديانتها، كما هو منتظر، فإن موقفها كان اشبه شيء بموقف العرب داخل الجزيرة من صاحب الدعوة الإسلامية بعدئذ، موقف المقاومة والمعارضة حتى استتب لدعوته الأمر .

وبعد ان تم للديانة المسيحية ما تم من الانتشار والاستقرار ، عاش ابناء الشعب العربي الواحد من مسيحيين ووثنيين وغيرهم في وئام وسلام يتناسبان مع اواصر القربى التي كانت تربط بينهم .

اما اليهود فقد ظلوا على مناوأتهم للمسيح وتقاطعهم وتدابرهم فيما بينهم وانطوائهم على أنفسهم ، كما عرف ذلك في غالب الاحيان عنهم .

وفي سنة ٧٠ م. قتل القائد الروماني تيطس معظم من كان في القدس

من اليهود واستباح اموالهم ودمر هيكلهم وقضى على اي اثر لهم .

ومع ان حكم اليونان والرومان معاً استمر نحو الف سنة فان ذلك لم يغير من الخصائص الاساسية لسكانها العرب ، بما في ذلك «النطق بلغات آبائهم والاحتفاظ بتقاليدهم». وبتعبير المؤرخ برستد « ابتلع العرب غيرهم ممن حل بينهم وطمسوا آثاره*. »

وانتهى عهد الرومان سنة ٦٣٧ م ، باستئناف العرب موجات هجرتهم من الجزيرة الى الهلال الخصيب . وكان العرب المسلمون هذه المـرة، تحت راية الاسلام، هم اصحاب الموجة، فدخلوا البلاد بعد مقاومة عنيفة ابداها الرومان وبعد حروب حاسمة ضدهم وضد من شايعهم من السكان . ولكـن كثيرين من السكان ، مسيحيين ووثنيين ، رحبوا بالعرب القادمين اذ عرفوا فيهم ارومتهم وتوقعوا الخير على يدهم .

ودخل عمر بن الخطاب القدس سنة ٦٣٨م، بطلب من اهلها ، ودون اراقة نقطة من دم انسان، واصدر عهدته العمرية الشهيرة التي تشهد بما رافق الحكم العربي الاسلامي من الرحمة والعدل ، والتي تدل ايضا على ان اليهود لم يكونوا الا جالية محدودة العدد يشكو منها جيرانها الذين عاشت معهم اجيالا عديدة .

وكان عمر يعرف المدينة المقدسة وما حولها، فقد سبقته اليها الهجرات الحديثة للعرب الانباط في بتراء الاردن ، والغساسنة في حوران سورية ، والمناذرة في حيرة العراق ، كما عرفها بامراء محمد عليه الصلاة والسلام اليها، وايفاد النبي في حياته جيشا لفتحها ، وعرفها ايضا حين كانت قبلته الاولى في الصلاة .

وظل العرب في البلاد الى يومنا هذا الذي نشاهد بأعيننا ما يجري فيه.

* برستد ، ص ٣١٥

١٠

قدم العرب في القدس

واستمرارهــــم فيها

عند البحث في الناحية التاريخية والاثريةالتي تشير الى انعرب القدس وفلسطين الحاليين هم من انسال العرب المسلمينالذينوفدوا مع الفتحالاسلامي وبعده ، لا نجد صعوبة ، لان التاريخ نسبيا حديث والدلالات واضحة .

ولكن عند البحث في ان العرب الذين كانوا يعمرون القدسوفلسطين، ايام الفتح الاسلامي وقبله ،هم من انسال العربالييبوسيين والكنعانيينالاوائل، الذين عمروا فلسطين منذ الازمنة السحيقة التي تحدثنا عنها ، يجب انتراعي مسألة لا مثيل لها في مصر والعراق،وهي ما سبقت الاشارة اليــــه من ان اسبابا جغرافية ومحلية تعود الى وسائل العيش حالت في القدس وفلسطين دون نشوء ملكيات موحدة او امبراطوريات موسعة . كانت القدس«مملكة مدينة » وكان يحكمها شيوخ او «ملوك» يتسلسلون فترات من الزمن ، ولكنلا يوحدون مدنهم،او عددا كافيا منها ، تحت سيطرة مركزية.كانت ممالك المدن الكنعانية مستقلة بعضها عن بعض .

لذلك كانت هذه الممالك المنتشرة في ارجاء البلاد تقاوم الغزاة منفردة. ولم تكن تتحالف الا نادرا جدا ، حين يتفق عدد من الملوكوالرؤساءلمقاومة الغازين . وقد تم هذا عندما غزا العبرانيون القدس فعجزوا عن فتحها مدة تزيد على قرنين .

وليس من خطأ في الاعتماد على تتبع وجود الشعب العربي وثباتــه في

القدس وفلسطين، حيث لا يمكن تتبع سلسلة الحكام ، فالشعب ،لا الحكام ، هو الدلالة الحقيقية ، وما تتابع الحكام والملوك الا معالم لهذه الدلالة ، وخاصة اذا كان هؤلاء الحكام والملوك غرباء ، فان الشعب عندئذ هو الاساس في اثبات الحق في الارض واستمرار هذا الحق. وقد كان العنصر العربي ، في القدس وفلسطين وسورية ، التي كانت فلسطين جزءا منها ، هو الاكثرية الغالبة على الدوام .

وعلى هذا الاساس نستطيع ان نقول موقنين ان سكان القرى والبوادي الفلسطينية الذين يؤلفون سواد الشعب او كثرته المطلقة هم انسال الكنعانيين وغيرهم من القبائل العربية التي عمرت القدس وفلسطين .

ومع ان سكان المدن هم في الاصل عناصر عربية ، مثل القرويين والبدو ، فمن الطبيعي ان يكونوا اقل صفاء من القرويين والبدو من ناحية الجنس ، اذ ان المدن تكون اكثر عرضة لهجرة العناصر الاجنبية اليها . ومع ذلك فان العنصر الغريب الذي يختار الاقامة والمعيشة بين سكان اي جنس لا يلبث ان ينخرط فيهم ويصبح منهم ، وخاصة بالنسبة للجنس العربي الذي يحافظ على خصائصه ويؤثر في غيره اكثر مما يتأثر بغيره .

وتاريخ القدس من هذه الناحية بسيط ، فهي قد نشأت يبوسية . وقد ظل اليبوسيون محتفظين باسمهم هذا الى عهد الميلاد ، وكانت لغة الكلام كنعانية اشتقت من العربية الاولى التي تولدت في قلب جزيرة العرب. وظلت القدس تتكلم بتلك اللغة منذ نشأتها القديمة الى نحو سنة ٤٠٠ ق.م. ، حين انتشرت اللغة الارامية . وهذه ايضا مشتقة من العربية الاولى . وظلت الارامية سائدة كلغة التجارة والدواوين ، وكلغة خاصة في المقام الاول ، حتى حلت محلها اللغة العربية الحديثة بدخول العرب المسلمين الى البلاد. وظلت كذلك الى الان . ونحن قريبون من الوقت الذي ندرك فيه ان فرض اللغة التركية في الاستعمار التركي ، الذي دام ٤٠٠ سنة ، او فرض اللغة الانجليزية والعبرية في

الانتداب البريطاني ، لم يغير من حقيقة الشعب شيئا ، وهي ان سواده كان عربيا ، ولغته وحضارته وعاداته الموروثة عربية . ولسنا نذكر ذلك في معرض المباهاة ، اذ من الافضل حسن الاقتباس وطواعية التقليد لما هو ارقى وافضل . ولا ريب ان شيئا من الاقتباس والتقليد قد تم ، ولكن تظل هذه خصيصة في الجنس العربي ، كما عرفناها الى اليوم ، يؤثر اكثر مما يتأثر .

وقد تناول ظاهرة استمرار الجنس العربي في القدس وفلسطين منذ اقدم العصور اكثر من باحث اجنبي ، فكانت خلاصة ما وصلت اليه السيدة فرنسيس اميلي نيوتن عضو الجمعية الملكية البريطانية ان « العرب لا اليهود هم اصحاب تلك « الصلة التاريخية » الثابتة المتمادية غير المنقطعة » . وعند السير جيمس فريزر : « ان الناطقين بالعربية من فلاحي فلسطين هم ذراري القبائل التي استوطنت فلسطين قبل الغزوة الاسرائيلية ، وانهم ما زالوا متصلين بالارض لم ينفكوا عنها ولا اقتلعوا منها . وان طغت عليهم للفتوح موجات ، فانهم ثبتوا واقاموا » . ومن المعلوم ان فلاحي البلاد كانوا دائما الاكثر عددا .

وقد عاشت في القدس خلال القرن الماضي السيدة إي . آ . فين ، زوجة القنصل البريطاني في فلسطين ، مدة تقرب من عشرين سنة وهي تدرس احوال القرويين الفلسطينيين ، وبخاصة حول مدينة القدس . ومع ان دراسة السيدة فين تعتمد التوراة كمرجع رئيسي ، وتتأثر بها ، فانها قد خلصت الى القول بأن « لا العادات ولا التقاليد ولا الدين تحول بيننا وبين القول بان الفلاحين الحاليين هم انسال الكنعانيين القدماء . وحتى اللغة العربية نفسها التي يتكلمون بها الان لا تعتبر مانعاً » [من هذا القول] . وتلاحظ السيدة فين ان ليس هناك من دليل اثري او غير اثري يدل على ان السكان الاصليين لفلسطين قد خرجوا منها او رحلوا عنها في اية فترة من الزمن ، بل هي تشير الى تأثر السكان اليهود بهم (اي بالعرب) بالتزواج ، وبالتكلم باللغة العربية ، في حين ان اطفال اليهود انفسهم لم يكونوا يفهمون اللغة العبرية .

وعندما دخل العرب المسلمون الى القدس وفلسطين اندمجوا في السكان الاصليين ، وآمن اكثر هؤلاء بالاسلام . وقد شمل السكان الاصليون عند السيدة فين الكنعانيين واليبوسيين والعموريين والفرزيين والحثيين ، الذين امتزجوا جميعا بعضهم ببعض والفوا سواد السكان في البلاد – القرويين العرب .

وبعد بحث طويل تلخص السيدة فين رأيها كما يلي ، حرفيا :

«لقد حققنا في اصول السكان الفلاحين العرب الحاليين في فلسطين فثبت لنا ان الارجح انهم من ذراري الشعوب الكنعانية القديمة ، للاسباب التالية :

« اولا – لان خمسة من تلك الشعوب استمرت في فلسطين الى العهد المسيحي ، ولم تبد او تنف من الارض بعد ذلك .

«ثانيا – لان الواضح ان الفلاحين شعب اصيل في البلاد وليس هناك من اثر او سجل يدل على غربتهم عنها .

«ثالثا – لان عادات كنعانية كثيرة قد حرمت في شريعة موسى وما تزال تلك العادات متبعة عند الفلاحين الى اليوم .

« رابعاً – لانهم حافظوا على الاسماء الجغرافية القديمة .

« خامساً – لان لديهم فيما يبدو عادات مقتبسة من عادات الاسرائيليين»* .
[اي انهم كانوا متوطنين في البلاد قبل الغزوة العبرية ، فلما تمت الغزوة ، اقتبس السكان العرب شيئا من عادات اليهود قبل سبيهم او تفرقهم في بلاد العالم المختلفة .]

وعلى هذا فاذا القينا نظرة على ما لخصنا من تاريخ القدس منذ نشأتها الى اليوم تبينت لنا الحقائق الاساسية الآتية :

(١) ان الجنس العربي هو اول من انشأ المدينة وعمرها .

---

* Mrs.Finn, Palestine Peasantry, Marshall Brothers Limited, London, 1923,P.94.

(٢) ان العرب لم يفارقوا القدس طوال تاريخها،وظلوا شعبها ومادتها .

(٣) ان العرب حكموا القدس اطول مدة في التاريخ منذ اقدم العصور الى يومنا هذا .

(٤) ان الشعوب والدول الاجنبية الغازية ، ومنها العبرانيون، حاولت السيطرة على المدينة والبلاد ، ولكن الاساس السكاني الغالب كان يعيد البلاد الى الوضع الاساسي ، العربي . وحتى حينما كان الغزو او الاحتلال الاجنبي يوطد حكمه في البلاد مدة قصيرة او طويلة ، كان سواد الشعب دائما عربيا او ذا اكثرية عربية ، وكان يشرئب الى الاستقلال او الى الحكم الذاتي ويطمئن اليه .

ومن المعروف تاريخيا انه لم يسبق الشعوب العربية الى سكنى القدس وفلسطين اي شعب آخر ، حتى جاء وقت الهكسوس والحثيين والحوريين والفلسطينيين والعبرانيين الذين مروا بالبلاد ، اثناء الالف الثاني قبل الميلاد. ونحن هنا نغض النظر عن « انسان فلسطين » و « انسان البحر المتوسط » اللذين سبقا توطن الجنس العربي الصريح ، وان كان هنالك ما يفيد ان هذين الانسانين يغلب عليهما الجنس العربي ايضا .

فنستطيع اذن ان نقول دون زلل ان اليبوسيين والكنعانيين ظلوا حكام القدس والبلاد اوسكانها ،منذ بداية السكن (٥٠٠٠ — ٤٠٠٠ق .م.) حول القدس ، ومنذ انشاء هذه المدينة المقدسة في نحو ٤٠٠٠ ق . م . والى سنة ١٠٠٠ ق. م. ، لم يعترض حكمهم معترض ، الا فترة الهكسوس (١٥٠ سنة) والشعوب التي ذكرناها . وبالتأكيد لم يكن لها تأثير على عدد السكان او لغتهم او حضارتهم . وهذا ايضا في حالة ما لا يكون الهكسوس عربا او ذوي اكثرية عربية .

وتلك مدة من الحكم والوجود العربي طولها ٦٠٠٠ سنة على اقل تقدير .

ومنذ سنة ١٠٠٠ ق. م. (حين فتح داود القدس) الى سنة ١٩٤٨ م ، يوم اعلن قيام الدولة الاسرائيلية بقرار غير قانوني من هيئة الامم ، وهي مدة تقرب من ٣٠٠٠ سنة اخرى ، لم يحكم اليهود القدس الا سبعين سنة زمن داود وسليمان ، وحتى هذه لم تخل من الخضوع للفنيقيين من جهة وللمصريين من الجهة الاخرى. ثم حكموا مملكتي يهوذا والسامرة حكما يشبه حكم ممالك المدن التي عرفت في القدس والخليل ، ومجدو وغزة وغيرهما ، قبل غزوة العبرانيين وبعدها . فليس لهما في حقيقة الامر حساب اكثر من حساب مملكتين من ممالك المدن الكنعانيه التي كانت تملأ السهل والجبل . اما فترة الحكم المكابي فلم تكن الا فترة حكم ذاتي في زمن محدود ضمن الحكم اليوناني في القدس .

وفي حين لا يطالب بفلسطين الفرس الذين حكموا القدس نحو ٢٠٠ سنة متوالية (لا متقطعة) ، ولا يطالب بها اليونان الذين حكموها نحو ٣٠٠ سنة متوالية ، ولا الرومان الذين حكموها نحو ٧٠٠ سنة ، نجد الصهيونيين يطالبون بـ « حق تاريخي » في القدس وفلسطين وغيرهما ، حق لا يطالب به العرب في اسبانيا التي حكموها او اقاموا فيها ٨٠٠ سنة متوالية .

ولو لم نحسب من السنين الثانية الآلاف التي اقام العرب فيها في اراضي القدس ، ثم في المدينة نفسها ، الا الحقبة التي مرت منذ الفتح الاسلامي الى اليوم ، وهي الثلاثة عشر قرنا المشهورة ، التي لم يعترضها الا الفترة الصليبية ، التي لم تغير واقع السكان ايضا ، لكفى بها حقا ، على الرغم من اية حقبة او حقب اخرى سابقة .

والصهيونيون انفسهم يفحمون بهذه الحقائق حين يواجهون بها ، فيعمدون الى تصاريح قوامها المغالطة والعنجهية والاصرار على الباطل الوقح ، مما لا

يقبله العقل وتتنكر له حضارة القـــرن العشرين ، مثل قول ناحـــوم جولدمان التالي :

« كان يمكن لليهود ان يأخذوا اوغندا او مدغشقر او غيرهما من البقاع لتأسيس وطن يهودي ، لكنهم لا يريدون شيئا اطلاقـــا ، الا فلسطين ، لا لان مياه البحر الميت يمكن بالتبخير ان تنتج ما قيمته خمسة آلاف مليون دولار من المواد المعدنية والمعادن المسحوقـــة ، ولا لان طبقات الارض الفلسطينية تحتوي على مقادير من البترول تزيد على مجموع احتياطات الاميركتين معا ، **ولكن لان فلسطين هي مفترق الطرق الاوروبيـــة والاسيوية والافريقية ، ولانها المركـــز الحقيقي للقوة السياسية العالمية والمركز الاستراتيجي للسيطرة على العالم .** »

وناحوم جولدمان هو رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ، وكان ايضاً رئيس المنظمة الصهيونية العالمية .

ومثل قول بن غوريون :

« لسنا عمياناً ... اننا على علم أكيد بأن فلسطين ليست بلداً خاوياً ، بل اننا نعرف ان ملايين العرب يسكنون في الاراضي الواقعة على ضفتي نهر الاردن الغربية والشرقية . كما أن هنالك ملايين من العرب الذين قطنـــوا فلسطين منذ ألوف السنين ، وانهم يعتبرون أنفسهم بحق أبناء فلسطين ... ولكن شاء العرب أم لم يشاؤوا ، فان فلسطين هي حلم اليهود منذ ثلاثـــة آلاف سنة . »

وقوله قبل قيام اسرائيل :

« ليس العرب في حاجة الى شراء أراضي فلسطين ، لانها أراضيهم ، وليسوا في حاجة الى هجرة عرب الى فلسطين ، لانهم هم أصحابها الشرعيون

وهم يقيمون فيها ... ان كل شيء في فلسطين هو ملك للعرب ، ما عـــدا الحكومة . اما نحن اليهود فعلينا وحدنا تقع مسؤوليـــات شراء الاراضي والهجرة الى فلسطين والاستقلال بالحكومة ... اننا نحارب في سبيل الامة اليهودية في فلسطين ، ولسنا نحارب لسلامة ٤٠٠ الف يهودي فقط مقيمين في فلسطين ».

وقوله بعد اقامة الكيان غير الشرعي ، وهويعلم في ذات نفسه انـــه يحاول ان يزرع جسما غريبا في البلاد العربية ، بما يسمى « دولة اسرائيل»:

« ان دولة امرائيل ليست قسماً من الشرق الاوسط ، الا من الناحية الجغرافية ،وهذه في الغالب ناحية ساكنة . اما من النواحي الحاسمة،نواحي التحرك الديناميكي والخلق والتطور ،فان اسرائيل جزء من اليهودية العالمية».

وبن غوريون هو أول رئيس لحكومة اسرائيل الصهيونية التى تألفت في جزء من فلسطين العربية . وهو عرقي متعصب ولد في بولونيا، ولا يمت لفلسطين بأية صلة ، ولله في خلقه شؤون .

المراجـــع

اضافة الى المراجع المشار اليها في هذا الكتاب ، نذكر المراجع التالية لاهميتها في البحث :

١ التوراة (العهد القديم) .

٢ حتي ، تاريخ العرب (المطول) .

٣ مصطفى مراد الدباغ ،بلادنا فلسطين،الجزء الاول ،القسم الاول.

٤ متحف الآثار الفلسطيني.

٥ العارف ، المفصل في تاريخ القدس.

٦ Kenyon, Amorites and Canaanites.

٧ Kenyon , Jerusalem.

٨ D . Winton Thomas; Ed.;Archaeology and Old Test. Study.

الفهرس

من الاقوال التي نشرت عن هـــذا الكتاب

١ ـ «ابارك جهدكم في تأييد حقنا ودحض مزاعم اعدائنا» .

عبد الخالق حسونة

الامين العام لجامعة الدول العربية

القاهرة

٢ ـ «ان البحث العلمي المجرد والاستقصاء التاريخي المنطقـــي المستند الى المعلومات التاريخية الدقيقة . . . جعلت من اطلع على [الكتاب] يسر بانه اضاف معلومات جديدة الى معلوماته واوضحت له امورا عديدة كانت غير منظورة » .

ضيف الله الحمود

وزير التربية والتعليم سابقاً

وصاحب مجلة الصحفي ـ عمان

٣ ـ «[الكتاب] يفند الدعايات الاسرائيلية الكاذبة ويرد الى الحق اخطاء تاريخية يتردى فيها كثيرون» .

ابراهيم شكر الله

مدير دائرة الاعلام بجامعة الدول العربية

٤ ـ «اشهد انك اديت واجبك على خير وجه بكشفك عن حقائق كانت خافية او منسية ، حتى على بعض العرب ، لا بل على بعض الفلسطينيين انفسهم» .

الشاعر الاديب سعيد العيشي

لندن

٥ ـ « عمل جليل فات الكثيرين من رواد السياسة والتاريخ » .

يعقوب العودات
(البدوي الملثم)
مجلة الاديب ـ بيروت

٦ ـ « جاء الكتاب متمماً للوثائق التاريخية عن عروبة القدس ومؤكداً للحق العربي فيها بالاضافة الى دحضه للادعاءات الصهيونية » .

جريدة الدستور
عمان

٧ ـ « ان الفضل الاساسي يظل في قيمة الكتاب التاريخية من حيث كونه وثيقة علمية استخرجت من كل ساحات التاريخ ، ومراجعة بشكل موضوعي هادىء . . . ويجعل الكتاب مؤهـــلا لان يكون دراسة موضوعية تقدم للقارىء الاجنبي اذا ترجمت » .

عبد الرحيم عمر
مدير دائرة الثقافة والفنون
عمان

٨ ـ «ولعل ما ذهب اليه المؤلف صحيح ، من ان القوة وحدها هي العنصر الحاسم في معركة التحرير . . . الا ان القوة بحاجة الى دعم فكري واعلامي في عالمنا الحديث الترابط . . . فجاء [الكتاب] إسهاما ادبيا وفكريا في معركة تحرير القدس » .

عزت الجبالي
مدير القسم العبري
وزارة الاعلام ـ عمان

٩ ـ « انفس دراسة موضوعية علمية قدمناها اثر النكبة . . . وآمل كثيراً ان يكون قد ترجم الى لغات عديدة » .

الاديبة الشاعرة سلمى الحفار الكزبري

دمشق

١٠ـ « شاقني الجديد فيه والمفيد ، وجذبني الايجـــاز ،وامتعتني الطلاوة ورشاقة الاسلوب » .

عبد القادر عياش

المحامي المؤلف، وصاحب مجلة صوت الفرات

الغلاف من تصميم الفنانة عفاف عرفات والفنان رفيق اللحام